موسوعة أسرار العشق
فى التاريخ والادب

العشق.. والغزل

فى القرن التاسع عشر

سيد صديق عبد الفتاح



العِشق.. والغَزَل

في القرن التاسع عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

صدق الله العظيم

دار الأمين

طبع * نشر * توزيع

الجيزة : ٨ شارع أبو المعالى

(خلف المعهد البريطانى) العجوزة

تليفون و فاكس : ٣٤٧٣٦٩١

١ شارع سوهاج من شارع الزقازيق

(خلف قاعة سيد درويش) الهرم

تليفون و فاكس : ٥٦٣٤٦٩٩

ص.ب: ١٧٠٢ العتبة ١١٥١١

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

رقم الإيداع ١٠٠٨٨/ ١٩٩٧

ISBN : 977-279-159-5

إخراج فنى : جمال فتحى أحمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

* عزيزى القارئ ...

"إن أخطر لحظات الحب بين الرجل والمرأة هى عند المكاشفة للعشق .. وهى عادة ما تبدأ بالغزل ، أو التغزل فى صورة وأفعال المعشوق .. وهنا .. تكمن خطورة تلك المحاولة الغزلية فى أن تقابل بالصد ، أو بتبادل المشاعر الفياضة بذلك الحب الجارف .

والغزل – العفيف – في الحب والغرام . . كشراب العسل شفاء من السقام .

ولقد كان من صور الغزل في التراث أن يقال : « ما أشد شوقى ، وتوقى ، وحنينى ، واشتياقى ، وانجذابى ، وظمأى ، وولهى ، ووجدى ، وتلهفى إليك ، وعليك ، وبك ، وإلى قربك ، ولقائك ، ورؤيتك » .

كما كان يقال : قلبى مشوق إليك .. ونفسى ذات لهفة عليك ، وانتزاع إلى لقائك .. يشوقها إليك كثرة محاسنك .. ويعظم حنينها إليك حلاوة شمائلك .. ويطيل ظمأها لذيذ عشرتك .. فلست أخلد إلى لذة ، وإن طابت .. ولا أركن إلى غبطة ، وإن دامت .. فطرفى أرق ، وقلبى قلق » .

ويقال أيضاً : « فى فؤادى حُرقة الاشتياق ، وحزازات النزاع ، ووله الحنين ، ولوعة الصبابة ، وكمد الحسرة ، وغلة الظمأ ، وشدة الأسف ، وتبريح اللهف » .

وكذلك : « قد برح بى طول صبابتى بك .. وأرقنى نزاعى نحوك .. وأقلقنى انزعاج قلبى إلى رؤيتك .. وأضنانى شوقى إليك .. وكدّر عيشى

شدة صبوتى لك .. فالقلب يحترق ، والكبد يخفق ، والأحشاء تصطفق ، والجفن يندفق ، والدمع ينبثق ، ونار الشوق تأتلق ... »

ونار شوقى .. فى العشق – تتأجج .. وحر الهوى يتوهج .. ولوح الظمأ يتهيج .. والقلب جريح مضرج .. يشوقنى نزاع .. ويسوقنى نحوك التياع .. ويزعجنى إليك حب اللقاء وشهوة الاجتماع .. فالنفس إليك سامية .. والعيشة معك راضية ، وبقربك سابغة ضافية ، ولذة الدنيا – إذا رأيتك – طيبة صافية .

لقد اشتد بى الشوق والنزاع ، وغلب على قلبى تباريح الالتياع .. فأنا حليف حنينى وصبوة ، وأليف تشوق وصبابة .. لا ألتذ طعم الحياة وإن صفت ، ولا تهنؤنى لذة النعيم وإن طابت .. فالقلب مشوق منجذب إليك ، والروح مسوق وافد عليك .. لا تشغلنى عنك فائدة ، ولا تذهلنى عن الاشتياق إليك منحة زائدة .. فأنا إليك مشوق ، وإلى رؤيتك مقود مسوق ، وعن لقائك وزيارتك ممنوع معوق .. يحدونى ظمأى إلى لقائك ، وتحدونى وحشتى على الأنس بمشاهدتك .

***

ولقد تطور غزل العشاق في العصر الحديث ، وسهلت لغته ، كأن يقول العاشق لحبيبته :

« منذ أن عرفتك يا حبيبتى عرفت نفسى .. كانت روحى غريبة عنى ، وكنت أنظر إلى قلبى كما ينظر المرء إلى عالم مغلق مجهول .. وفجأة أشرق عقلى ، وخفق قلبى ، وعلمتنى عيناك كيف أصلى وأبكى .. فأحببتك يا حبيبتى كما أحب ذاتى ونفسى ..

« ليتنى كنت ثمرة صغيرة لأذوب فى فمك ..

« ليتنى كنت زهرةً جميلةً لأعطر روحك ..

« ليتنى كنت شهداً للسانك ، ودماً لقلبك ، وماءً عذباً تغتسل فيه إلى الأبد قدماك ..

« إنى لأود أن أكون الشجرة القائمة تجاه بيتك .. أود أن أكون غصناً من الشجرة .. أو ورقة من الغصن .. أو ظلاً من الورقة كى أتسلل إليك فى رابعة النهار يا حبيبى وأداعب خدك الناعم الرقيق ولو للحظة .

« إنى لأعشقك وأحبك بقدر ما فى القلب من نبض وحياة .. بقدر ما فى العقل من خواطر وفكر .. بقدر ما فى الروح من نشوة وخلود .. بقدر ما فى النفس من لذة وشقاء .. بقدر ما فى الحياة من دوام وبقاء .. بقدر ما بين العاشقين من شوق اللقاء » .

***

*** عزيزى القارئ ...**

الحب العشقى حركة تشمل القلب ، وتشغل الخاطر ..

أما حصولها ، فيكون أولاً على طريقة الوداد ، أو الميل البسيط .. ثم يرتقى إلى درجة الحب ، وهو الميل الثابت إلى المحبوب ..

ثم تصعد - أخيراً - إلى درجة العشق ..

وهناك إذا أفرطت تدعى بالهوى ، أو الجوى ، أو الغرام .. وذلك حسب قوتها ..

فإذا نزل العشق فى قلب الشخص .. رحل صوابه ، وصارت كل أفكاره تدور على هذا الاسم ..

وهكذا .. تعود كل تصرفاته منصرفة إلى وجه الحبيب بحيث لا يعود ساعياً إلا في سبيل مرضاته ، ولا يطلب إلا شهوده ..

فإذا تبدلت بالغيبة ، تلاعبت به خمرة الأشواق ، وعبثت بقلبه نار الأتواق .. فيحن ، ويئن ، ويضيق صدره ، ويضطرب فكره ، فيأخذه

القلق ، ويشمله الأرق ، ويتصعد ، ويتنهد ، ويهيم إلى الطرقات ، ويرصد الطاقات ، ولا يلذ له سوى ترداد ذكر الحبيب ، واللهج به ..

فكلما كان أرسخ ، وصاحبه به أكلف .. فإن موقع لذة الظفر منه أعمق ، وسروره بذلك أبهج ..

والعشق وإن كان من الصفات التى تستعبد الأحرار ، وتسترق ذوى الأقدار ، وتورث الأحزان ، وتوقع فى الذل والهوان .. إلا أنه أيضاً من الخصال الجميلة التى تطلق اللسان ، وتشجع الجبان ، وتصفى الأذهان ، وتولد الأخلاق الحسنة وحب الفضيلة فى الإنسان .

* * *

وللعشاق مذاهب مختلفة فى العشق :

فمنهم من يهوى ذات التصنع ، والتمويه ، والعجب ..

ومنهم من لا يعجبه ذلك ؛ وإنما يؤثر الحسن الطبيعى ، وأن يكون فى محبوبته بعض الغفلة والبلاهة ..

ومنهم من يزيد فى المرأة غراماً إذا كانت ذات عزة ..

ومنهم من يعشق المرأة لاتّسامها بسمة شرف وسيادة ..

ومنهم من يعشق من بها ذلة وانكسار وملاينة ..

ومنهم من يعشق من على طلعتها آثار الحزن والكآبة والفكر ..

ومنهم من يعشق ذات البشر ، والطلاقة ، والأنس ..

ومنهم من يعشق من بها مرح ، ونزق ، وطيش ، وثرثرة ، وقهقهة .

ومنهم من يعشق المرأة لأدبها ، وفهمها ، وحسن كلامها ..

ومنهم من يعشق التى تكون كثيرة الزينة ، والتأنق ..

ومنهم من يعشق المرأة الماجنة المستهترة ..

ومنهم من يعشق المرأة الشهوانية ..

ومنهم من يعشق المرأة العفيفة ..

ومنهم من يحب اجتماع هذه الصفات كلها فى محبوبته ! ..

ولكن .. لماذا ؟ ..

هذا هو ما سنلقى الضوء عليه فى طيات هذا الكتاب .

« سيد صديق عبد الفتاح »





العشق
فــى آداب
القرن التاسع عشر

(العشــق .. والغَـيْـرَة)

* الغيرة أنواع :

عنـدمـا يولد الطفل الثانى ، يشعـر الطفل البكْر أنه قد أُزيح عن عرشه ، وظهر فى عالمه الصغير من يزاحمه ، ويشاركه فى عطف الأم ورعاية الأب .

والقاعدة أن الأخوة يتناقشون ، وتنشأ بينهم الغيرة التى تؤدى إلى ألوان من الجفاء والحقد ... وكذلك الحال بين الشقيقات .

وأشد ما تكون الغيرة بين الأخوة والأخوات ، وإذا وُلدوا ووُلِدْنَ من أمهات مختلفات ، كما هى الحال في الشرق العربى .

ومن ذا لذى ينكر استفحال الغيرة بين التلاميذ ، وبين الموظفين والعمال ؟ فغيرة أهل الحرفة الواحدة بعضهم من بعض - أو كلهم من فرد نَبغَ ورقى السُّلَّم ، وهم فى الحضيض - هذه الغيرة بين أهل المهنة الواحدة مشهورة .

وقد بلونا من غيرة الصحفيين والأدباء والشعراء فى حياتنا الفكرية والفنية ، حرباً عواناً يتراشق فيها الخصوم بعبارات السباب ، ونشر الفضائح .

الغيْرة : تبعث الغيرة ! فيظهر أن الآباء تعديهم غيرة الأبناء ، فيتبارون فى كسب محبة الأولاد ، فكم ذا رأيت الوالدين يتحرقان غيرة لأن الابن الناجح - أو الفتاة الموفقة فى زواجها - يحن إلى أحدهما ، ويهفو عليه ويتهاون قليلاً أو كثيراً فى التلطف بالثانى .

والشباب يغير من الشيوخ والكبار ، بسبب مراكزهم وما أحرزوا من جاه أو ثروة أو نفوذ .

والشيوخ تعصف بهم الغيرة لأن الشباب يمتد أمامهم الأجل ، وينفسح لهم ميدان الحياة رحباً غنياً بالفرص حاشداً بالسعادات المنتظرة !!

أخيرًا . . غيرة المرأة من المرأة !!

ونمضى فى الموضوع ، فنلاحظ أن ما تقدم يدل على :

أولاً : أن الغيرة أنواع عديدة .

ثانيًا : أن الغيرة شائعة فى كل زمان ومكان – فى جميع الأعمار والأجناس ، وبين الرجال والنساء على حد سواء .

ثالثًا : تتسبب الغيرة عن عوامل متباينة ومواقف متعارضة .

رابعًا : تؤدى الغيرة إلى الخصام والشقاق وتقضى على السعادة .

*** غيرة العشاق :**

أيهما أكثر غيرة : المرأة أم الرجل ؟ ! وعلى من تقع النقمة وينصب العذاب فى الغيرة ، على المعشوق أم على المنافس – هل يقتل الزوج زوجته أم يقتل عشيقها ، وهل تقتل الزوجة عشيقة زوجها أم تقتله هو ؟!

الجواب على هذه الأسئلة يختلف باختلاف الأمزجة والظروف ، وشواهد الحال والعلائق الشخصية ومقدار ما هنالك من عقبات أو مسهلات .

وتبقى بعد ذلك الحقيقة المتفق عليها منذ قتل « قابيل » أخاه « هابيل » ، وهى : أن الغيرة تحرّض على الجريمة .

فقد تقتل المرأة عشيقة زوجها بالسم ، أو تتجسس على زوجها حتى تكشف أسراره وفضائحه ، وتعرضه للهلاك .

وقد يخون الرجل من أجل الغيرة .

وقد يصرع زوجته أو عشيقته إذا استقر فى وهمه أنها استبدلت به خليلاً سواه .

« عُطيل » قتل زوجته « ديدمونة » ، ثم انتحر لما تجلت له الحقيقة ، وعرف أن « ياجو » خدعه بما دلسه عليه من أوهام .

و « بطرس الأكبر » مثل بضابط شاب ، عشقته « كاترين » زوجته المعبودة .

ويقال : إن « الرشيد » نكب البرامكة وأبادهم عن آخرهم ، لشبهة من غيرة ، حيث وشى له أحد رجال البلاط أن « يحيى البرمكى » مغرم بأخته « العباسة » .

واستمرت الحرب حول « طروادة » عشر سنوات تقاتل فيها الإغريق ، من أجل « هيلانة » التى اختطفها « باريس » ابن الملك « بريام » صاحب طروادة .

ولقى الشاعر الأندلسى والوزير المشهور « ابن زيدون » صنوفًا من العذاب والتشريد والسجن من أجل حُبه « ولادة » بنت الخليفة التى نافسه فى عشقها « ابن عبدون » الوزير الخطير صاحب الدسائس والحيلة الواسعة .

وقد كشفت لنا الحرب العالمية الماضية عن حقائق تشبه الروايات الخيالية ، ذلك أن المؤتمرات الغابرة والمحالفات السابقة ، كان للنساء فيها القدح المعلى من أجل تسلطهن على قلوب الساسة والملوك ! .

فكأن الحروب الأوربية الطاحنة ، نشبت بتحريض المرأة ، وإرضاء لشهوات انتقامها وغيرتها ، أو إشباعًا لأحقاد المتنافسين على إحراز رضاها .

حتى « تيمور لنك » ذلك الجبار غليظ القلب ، قيل أن نساء حريمه حرضنه على افتتاح الهند طمعًا فى جواهرها ! .

ولا ريب فى أن الغيرة فى حريم السلاطين هى السبب فى جرائم عديدة منها : قتل الأهل ، وإعدام الوزير ، وتمزيق الدول بالعداوة والفتن !! .

وليست الغيرة من الغرائز الإنسانية ؛ لأن الذى ينطبق على الغرائز لا ينطبق عليها ، فهى إذن شىء غير طبيعى ولا معقول ، ولا مبرر لها مطلقًا .

وجملة ما يقال عنها ، هو : أنها تتصل :

أولاً : بالحب والعشق والغرام ..

ثانيًا : بالغضب والانفعالات الحادة ..

ثالثًا : بالألفة والوداد ، وما بين الناس من تواصل وخلطة .

وقد رأينا أن الغيرة تنبت ، وتنمو بين أفراد العائلة الواحدة ، بين الأولاد وبين البنات ، ثم بين الأبوين على حُب الأولاد ، وعلى حُب الغير .

والغيرة تَمُتُّ بأسباب قوية من الأنانية ، وتمتد جذورها من الأثرة وحب الذات ! .

ومن أجل ذلك تصير الغيرة عادة بالتكرار ، وقد قيل أن العادة طبيعة ثانية .

هذا وأسباب الغيرة ودواعيها والمحرضات عليها ، وكذلك مظاهرها والأشكال التي تتراءى عليها - هذه كلها تتكيف بروح العصر وبالطبقة الاجتماعية والمركز الاجتماعي والحالة الاقتصادية .

إذن : الغيرة عادة ، نصفها مكتسب ، ونصفها صادر من الأنانية نابت من الأثرة - فهي طبيعة ثانية ؛ لكنها مهلكة مدمرة تقضي على الشخص وقد تقضي على سواه ، وربما قضت على أمم وشعوب .

***

(العشق .. فى حياة المرء)

قال أحد الشعراء :

هو الحُب فاسلم بالحشا ما الهوى سهل
فما اختاره مضنيّ به وله عقل
وعِشْ خاليًا فالحُب راحته عنَى
وأوله سقم وآخره قتل

إن الإنسان متى ناهز سن الصبوة والشبيبة تميل نفسه بالطبع إلى أمر تتمعشق فيه ، وتصبو إليه .

ولما كان الإنسان غير قادر على كبح جماح شهواته ، طمحت نفسه إلى الحب والتصبب .

ومتى سيق الإنسان إلى هذه النقطة التى وصل إليها بالرغم عنه وحتفًا عن أنفه ، يهيم غراماً وولوعًا إلى أن يتغزل فى آنسة أو خود ناهدة ، فيسلوا كل شىء دون ذلك ، ولا يفكر إلا فيما هو مغرم به ، ومتصبب فيه حتى تقوى الرابطة ، وتعظم الأسباب .. فيأخذ فى أن يهجر النوم ، ويمتنع عن الطعام ، ويهمل أشغاله ، ويترك ذويه وأقرانه .

ولا يجد لذته إلا فى العزلة ، والابتعاد عن كل شخص .. ذلك ليتمكن من بث لواعج [1] الغرام لنسيم الصبا .. أو عرض شكواه لنجوم السماء وأقمارها .. أو مناداة محبوبته لتزوره ولو فى الأحلام .. أو يشكو الزمان ، ويهجو [2] الدهر الذى لم يقرب مزار محبوبته ، ويسب الأيام ، ويلعن الليالى التى أبعدته عمن يحبها قلبه .. كل هذا يترنم به ، ويترنح بذكره ، وهو فى انفراده .. لا تراه العيون ، ولا يلمحه رقيب واش .

---

(١) كل محرق مؤلم .
(٢) يذم . يقدح فى حق .

وأحيانًا .. يرسل تحيته ، ويبعث تسليماته ، وفرطِ أشواقه على أجنحة الرياح التى تهب .. وإلى غير ذلك من التخيلات الوهمية التى تتخيل له فى ذهنه المتجه إلى محبوبته ، والمنصرف إليها دون سواها .

وكل هذه الانفعالات المنبعثة من الشهوة البهيمية تذهب به إلى موارد المتالف ، وتقوده إلى شر الحتوف والمهالك ، وتضر بجسمه ضرراً بليغًا وهو غفلان لا يشعر .. قد أخذته سنَة [1] الهيام ، فأنسته ما يتجشمه من مصاعب المتاعب التى نخرت قوَاه ، وأضنكت عزيمته ، وأضاعت رشده .. فأصبح باهت اللون ، نحيل الجسم ، نحيفه ، فاقد الحواس والادراك ، بعيد التصور .. إلا محبوبته .

ويلبث على هذه الحال حتى تؤول به إلى أحد أمرين : إما موته ، وإما نواله بغيته التى كانت ضالته المنشودة ، وغايته القصوى .

فمتى فاز بأمنيته ، انحلت عُرىَ الحُب ، وتَمزَّق رداء العشق .

وتأخذ النفس فى التنازل عما كانت عليه والإحساسات والعواطف ، فيخمد ضرام نارها ، والجسم يعود إلى ما كان عليه قبل هذا العارض .

وتفيق نفْس الشخص ، فيمقت نفسه ، ويلومها على ما قادته إليه من تباريح الحب ولواعج الغرام .

غير أنه لا يعتم حتى تدفعه نفسه إلى الميل لشىء آخر .. إذ أن سُنَّة الميل إلى الأشياء الحَسَنَة غريزية فى الإنسان منذ نشأته .. ولا يتأتى له التنازل ، أو الإقلاع عنها مهما اشتدت الوطأة ، وعظمت الحال .

أما العشق ، من حيث هو ، فَيُولِّد عند الشبان : الشجاعة ، والكرم ، ودماثة الأخلاق ، والميل إلى الارتقاء ، والنظافة ، والسعى وراء الكسب .. فهو ممدوح من هذه الوجهة .

---

(١) غفلة نوم : غفوة .

أما العشق من حيث أنه يقود المرء إلى المفاسد ، ويسوقه إلى أردأ المسالك ، فهو : ممقوت ، مذموم .

وخير العشق : ما كانت الصيانة رائده ، والعفاف قائده ، والفضيلة مشكاته ، والحشمة سميره ، وغايته حميدة .

وإذا خرج عن ذلك : فعدم الانشغال به أضمن راحة ، وأحسن عملاً .

أما من اتخذه ذريعة لنيل أغراضه السافلة ، وقضاء للباناته البهيمية .. فهو جبان ، نذل ، لا يصح أن يكون فى مصاف أفراد الهيئة الاجتماعية بذلك .. لأنه قد يكون خرق نواميس الهيئة ، وقوانين الإنسانية ! .

وقبيح على الإنسان أن يسلك هذه الخطة العوجاء ، ففيها شقاء له ولنسله من بعده إن لم يَتُبْ ، ويعدل ، وإلا فالعين بالعين ، والسن بالسن ، وفى هذا الكفاية .

ويجمل بالمرء أن يصرف كل عنايته ، ويوجه جل أفكاره فيما هو أنفع له وللهيئة الاجتماعية التى هى فى حاجة كبرى إليه وإلى نسله .

لأنه لو تعلق الشاب بالحب والعشق .. أضاع مزية التناسل ، وعاش ولا ذرية له ، فإذا مات ، أو عاش على حد سواء .

أما الأمور النافعة له من الحب والتصبب ، ، فهى أن يتمسك بأهداب السعى والكد ، وينصب على ما يخلد له الذكرى الحسنة .. فينتهز فرصة هذا الدور المهم فى الحياة ، أى دور الشغل والسعى ، دور الجرى والنشاط ، ويقوم بتأليف المؤلفات ، أو ابتكار المخترعات ، أو ما شاكل ذلك ، إذ لا وقت له بعد ذلك إلا النذر اليسير ، فهو على أهبة الزواج ، وحمل العبء الثقيل ..

ولا خير فى إنسان يمضى معظم عمره ، وزهرة شبابه فى عدم تخليد ذكر له ينفعه وينفع بَنِيه بعده .

وأحسن وسيلة موصلة إلى هذه الغاية .. أن ينعكف الإنسان فى أوقات فراغه ، وينعزل وحده ، فبدل أن يغازل النسيم ، ويسامر القمر ، ويحادث النجوم ، ويكالم عشيقته فى الأحلام .. يتفرغ وحده للتأليف ، أو الاختراع ، أو الانصباب على المطالعة ، أو الانعكاف على إتقان حرفته ، أو حل غوامض صناعته .

وإذا رأى نفسه أنه لا يستطيع التغلب على أهوائه ، وردع جماح شهواته .. يسعى فى الزواج ، فيغنم ، وينعم ، وهذه أكفل طريقة لسعادته ، وأضمن حالاً لمستقبله .

وأما العشق ..

فراحته : عناء ، وسعادته : شقاء ، وصحته : سقام ، وحقيقته : زور وبهتان ، وأوله : سقم ، وآخره : قتل .

فحذار .. حذار من الوقوع فى أحبولته ، فطالما أذل بعد العزة ، وخفض بعد السمو ، وأهان بعد الإكرام ، وأفقر بعد الغنى .

فالعشق : ابن للدنيا .. فهو لا أمان له[1] .

* * *

---

(١) فرنسيس ميخائيل .

(العشق لدى محرر النساء)

« كنا نظن أن العشق في ذوات الحركة والحدّة من النساء أكثر ، فوجدنا الأمر بخلاف ذلك ، وهو فى الساكنة الحركات ، أكثر .. ما لم يكن ذلك السكون بلَهًا » .

« ابن حـزم الأندلسى »
(٩٩٤ - ١٠٦٣م)

* * *

* يقول « قاسم أمين » : (١٨٦٥ - ١٩٠٨م) :

« لا شيء يشبه العشق فى عنفوان نشأته ، إذا هجم هذا المستبد القاهر . . ارتعدت منه الفرائص ، وحصر اللسان ، واختبل العقل ، وخلا الطريق أمامه . . فوصل إلى القلب بوثيقة واحدة ، أو بوثبات متعددة .

« ومتى احتله تمدد فيه ، وانتشر ، وملأه برمته ، فلا يقبل منافسًا ، أو منازعًا ، أو شريكًا ، أو ضيفًا بجانبه ؛ بل يستأثر وحده بالنفس فيلهيها عن شواغلها ، وينسيها حاجاتها ، ويفرق بينها وبين أميالها ، ويُذهب همومها وأحزانها ، ولا يطمئن إلا إذا قطَعَتْ العلاقات مع غيره ، وأصبحت كلها له كأنها ولدت معه فى يوم واحد ، وتفنى معه فى ساعة واحدة ، لا تعرف ماضيها ، ولا تبالى بمستقبلها .

« فإذا تمكّن منها على هذا الحال ، وقبض على زمامها ، رضيت بعجزها وشكَرَتْه أسرها ، واغتبطت برقيّها ، ووجدت على اتصالها بنفس أخرى قوة ، وفرحًا ، وسعادة لم تَرَ مثلها .

« العاشـق عنده ما يكفيه .. سماؤه صافية مهما تراكمت عليها السُحُب . ومائدتــه فاخرة ، وإن لــم يكن عليهــا غير الخبز والملح ، تنتابه الحوادث ، ولا تترك به أثراً .. لأنه لا يعبأ بها : سارة أو ضارة ، ويقاوم الحيــاة بجرأة عجيبة .. لأنه يشعر بأن فى جسمه روحين وفى صدره قلبين .

« إن كان من الوجود إنسان يستحق أن يُحسَد على نعمته . . فهو العاشـق .

« كل عشق شريف ، فإن كان بين شريفين ، زاد فى قيمتهما ، ورفع من قدرهما .

« وإن كان بين وضيعين ، أكسبهما شرفًا وقتيًا ، حتى إذا زال العشق . . سقطت قيمتهما ، وانحطت مرتبتهما ، ورجعا إلى أصلهما .

« يشعر العاشق بلذة ساحرة إذا كان محبوبًا ، وإذا كان غير محبوب فيجد فى ألمه لذة أخرى مشابهة السُكر من تنبه الأعصاب ، وسرعة فى دورة الدم ، وانفعالات شديدة فى النفس ، وبالإجمال من زيادة محسوسة فى مبلغ الحياة .. كلاعب القمار ، يتمتع بإرضاء شهوته فى الربح والخسارة ! ..

* * *

١ ـ العشق .. فى آراء « الشدياق » [1]

« ... السجع للمؤلف كالرِّجْلِ من خشب للماشى ، فينبغى لى أن لا أتوكأ عليه في جميع طرق التعبير ، لئلا تضيق بى مذاهبه ، أو يرمينى فى ورطة لا مناص لى منها .

ولقد رأيت أن كلفة السجع أشق من كلفة النظم ، فإنه لا يشترط فى أبيات القصيدة من الارتباط والمناسبة ما يشترط فى الفِقر المسجعة .

وكثيراً ما ترى الساجع قد دارت به القافية عن طريقه التى سلك فيها حتى تبلغه إلى ما لم يكن يرتضيه لو كان غير متقيد بها .

والغرض هنا أن نغزل قصتنا على وجه سائغ لأى قارىء كان ، ومن أحب أن يسمع الكلام كله مسجعًا مقفىً ، ومرشحًا بالاستعارات ، ومحسنًا بالكتابات ، فعليه بمقامات الحريرى ، أو بالنوابغ للزمخشرى .

فنقول : إن صاحبنا « الفارياق » بعد إقامته مدة على الحالة التى ذكرناها جرى بينه وبين جده من النزاع والمناقشات ما أوجب عليه ترك ما كان فيه واقتفاء طريق آخر من طُرق المعاش ، فتاح له أن يكون معلمًا لإحدى بنات الأمراء ، وكانت ذات طلعة بهية ، وشمائل مرضية . تامة الظرف . ناعسة الطرف ؛ ولكن ليس المراد بذلك أنها كانت لا تبصر من يحبها كما يكون من به نعاس ، وإنما المعنى أنها ذابلته ، حتى ولا هذه العبارة مفصحة بما أريد أن أقوله ، فإنها توهم أنها كانت ذابلة مع أنها كانت غضة بضة .

بل المقصود أن نقول: إنها كانت كأنها تنظر عن تحشيف ؛ ولكن مادة حشف لا تعجبنى فإن فيها معانى اليبوسة والخساسة والرادءة ، وشىء آخر تجلّ الملاح عن ذكره .

---

(١) أحمد فارس بن يوسف الشدياق (١٨٠٤ - ١٨٨٨م) .

بل المراد أنها كانت تكسر جفنيها عند النظر ، ولا الكسر أيضًا لائق لها ، فلا أدرى كيف ألحن للقارىء ما أردت .

ولعل الأوفق أن يقال إنها كانت ترمى بسهام عن عينيها .

ولم يكن صغَر سنها مانعًا من تتبيل من ينظرها ، فإن القلب يعلق بهوى الصغيرة الجَداء كما يعلق بهوى الكبيرة الوطباء . إذ ليس كل عشق مؤدياً إلى الدعارة .

فقد عشق الناس الرسوم والأطلال والآثار ، والأشكال والديار .

ومنهم من عشق لرؤيته كَفًا مخضبًا ، أو عقيصة شعر ، أو ثوبًا ، أو سراويلات ، أو تكَّة ، أو نحو ذلك .

وأعرف من أحب هِرَّة امرأة فكان يلاعبها ، ويخيل له الغرام أنه ملاعب صاحبتها .

وكثيراً ما كانت تنشب فيه أظفارها وتدميه ، وهو يستعذب ذلك ويستحليه ، إما لاستعذاب العذاب فى هوى المحبوب ، أو لاعتقاده أن مداعبة النساء أيضًا لا تخلو من خدش وإدماء .

فكون الجرح منهن أصالة أو وكالة ، إنما هو شىء واحد .

وقد سُئل أحد العشاق عن مبلغ الوجد منه ؟ فقال : « كنت أرتاح للريح إذا مرت على نتن مقبلة من صوب المحبوب » .

هذا وإن عشق أهل تلك البلاد أكثره على هذا النمط .

أى أن العاشق منهم يُكْلَف بأثر من محبوبته ، كمنديل ، أو زهرة ، أو رسالة ، وخصوصًا بنسة شعر ، فيشمه ، ويضمه ، ويقبله ، ويقلبه ، ويعانقه كما قيل :

الشّعر مثل الشّعر داعية الهوى والشّعر مثل الشّعر ذخر يذخر
من غاب عنك فلست تنظره سوى بالشّعر أو بالشّعر وهو الأكثر

فإن قيل إنهم عشقوا ذلك طمعًا فى وصال الحبيب الذى تفضل بهذه النعم لا كَلَفًا بها من حيث هى هى .

قلت : ما المانع من أن تعشق الصغيرة طمعًا فى أن تصير كبيرة .

ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل .

ورُبَّ أمل أحلى من فوز .

وقد علم أهل الدراية أن من حَرَمَه الله منَ الجَمال لغاية لا يعلمها إلا هو ، عوّضه عنه زيادة قصاص له بحدة الفكر ، والبصيرة ، وشدة التصور ، والتخيل ، ودقة الحس . . فيكون أسرع إلى العشق ، وأكثر حرصًا على أهل الجمال . . إذ الإنسان كلما بَعُدَ عن الشىء المقصود ، كان توقانه إليه أكثر ، وتولعه به أشد .

والمراد من ذلك كله أن نقول : إن « الفارياق » كان يعلم من صغره أنه بمعزل عن الجمال ، وأنه من صبائه كان يعظم أهله ويميزهن على غيرهن ، وأن القبيح معذور على عشق المليح كما قال الشاعر :

وقالوا : يا قبيح الوجه تهوى مليحًا دونه السُمْر الرقاق
فقلت : وهل أنا إلا أديب فكيف يفوتنى هذا الطباق

قالوا أو أقول أنا عنهم : وقد يكون عشق الصغير كبيرًا ، كما يكون عشق الكبير صغيرًا ، فإن الصغير لما كان غير ذى رشد يرده عن الاسترسال ، والتمادى فى هواه ، كان هذا الاسترسال معقبًا للجموع دون حد . ألا ترى أن الصغير إذا ولع بشىء من اللعب واللهو . . فإنه يتهتك فيه ، وينهمك غاية ما يكون ، فكيف به إذا جنح إلى شىء هو أقوى من كل ما يستميل الطبع ويشوق النفس .

نعـم . . إن الكبـير يقـدر منافع مـا يقصـده من معـشوقـه أكثـر من الصغير . . ولذلك يكون حرصه عليه أبلـغ ، وطلبه له أكثر . غير أن عــزة نفسـه ، وسـورة طبـاعـة ، ونهيتـه قـد تمنعـه من أن يسلم عنان مـشيئته للهـوى ، فيكون فى ميلـه وتوقانه تارة مقـدمًا رِجْلاً ، وتارة مؤخرًا أخرى .

والصغير متى مـا استرسل استسهل . . وبعد فقد نَذَرْتُ على نفسى أن أكتب كتابًا ، وأن أودعـه كل ماراق لخاطـرى من القـول سديدًا كان ، أو غير سديد ، فإنى اعتقدت أن غير السديد عندى قد يكون عند غيرى سـديدًا ، كـمـا تحقق لدى عكسـه ، فـإن شئت فاذعن أولاً ، فـليس هذا الوقت وقت العناد والخلاف .

والحاصل أن « الفارياق » لبث يعلّم سيدته الصغيرة ، وجعل من دأبه أن يتودد إليها بإغضاء النظر على اصطلاح غلطها .

بل لم يكن يرى أن صاحبة هذا الجمال يجوز ردها ، فتأخرت هى فى العلم ، وتقدم هو فى الهوس . . فمما قال فيها :

بروحـى من أعـلمـــــه وقلبى　　أسـيـر هواه لن يسـتطيع صـبـرًا

أغـار عليـه وجـدًا من حـروف　　يفـوه بهـا فـتلثم منه ثغـرًا

والحمد للّه على كون اللغة العربية خالية عن الياء الفارسية ، والفاء الأفرنكيـة ، وإلا لزادت غَيْرة صاحبنا . . أو ربما كان سببًا فى جنونه ، فـإن الغـيـرة والجنون يخرجـان من مـخـرج واحـد كـمـا أفـاده المشـايخ الراسخون فى الزواج .

وهنا دقيقة . . وهى أن بعض العتـاول جمـع : عتول ، وهو من لا خير عنده للنساء يستثقل المؤنث فى الغزل والنسيب فيجعله مذكرًا وبعضهم يضمره ، وعليه قول الفارياق أعلمه .

والظاهر أن المقدر فى ذلك لفظه شخص ، فياليت هذا الحرف كان فى لغتنا مؤنثًا كما هو فى الفرنساوية والطليانية ، حتى لا يجد الناسب محيدًا عن التأنيث .

فأما تعليم نساء بلادنا القراءة والكتابة فعندى أنه مَحْمَدَة بشرط استعماله على شروطه ، وهو مطالعة الكتب التى تهذب الأخلاق وتحسن الإملاء .

فإن المرأة إذا اشتغلت بالعلم ، كان لها به شاغل عن استنباط المكايد ، واختراع الحيل .

ولا بأس بالمتزوجات بقراءة كتابى هذا وأمثاله ؛ لأنه كما أن ألوان الطعام ما يباح للمتزوجين دون غيرهم ، فكذلك هى ألوان الكلام .

والظاهر أن اللغة العربية شَرَكٌ للهوى ، إذ يوجد فيها من العبارات الشائقة المتصبية مالا يوجد فى غيرها .

فمما قرأت مثلاً فى شرح المشارق « لابن مالك » : أن مراتب العشق ثمانية .. أدناها : الاستحسان ، وينشأ عن النظر ، والسماع .

ثم يقوى التفكير .. فيصير : مَوَدّة ، وهى الميل للمحبوب أى (المحبوبة) .

ثم يقوى .. فيصير : محبة ، وهى ائتلاف الأرواح .

ثم يقوى .. فيصير : خلة ، وهى تمكن المحبة فى القلب حتى تسقط بينهما السرائر .

ثم يقوى .. فيصير : هوىً ، بحيث لا يخالطه تلون ولا يداخله تغير .

ثم يقوى .. فيصير : عشقًا ، وهو الإفراط فى المحبة ، حتى لا يخلوا فكر العاشق عن المعشوق أى (المعشوقة) .

ثم يقوى .. فيصير : تتيماً ، وفى هذه الحالة لا ترضى نفسه سوى صورة معشوقة ، أى (معشوقته) .

ثم يقوى .. فيصير : ولَهاً ، وهو الخروج عن الحد حتى لا يدرى ما يقول ، ولا أين يذهب ، وحينئذ تعجز الأطباء عن مداواته .

قلت وأن من أنواعه أيضاً : الصبابة ، وهى : رقة الهوى والشوق .

والغرام : وهو الحب المستأسر .

والهيام : وهو الجنون من العشق .

والجوى : وهو الهوى الباطن .

والشوق : وهو نزاع النفس .

والتوقان : وهو بمعناه .

والوجد : وهو ما يجده المحب من هوى المحبوب أى (المحبوبة) .

والكَلَف : وهو الولوع .

والشغف : وهو إصابة الحب الشغاف أى غلاف القلب ، أو حجابه ، أو حبته ، أو سويداءه .

والشغف : وهو أن يغشى الحب شغفة القلب ، وهو رأسه عند معلق النياط منه .

والشعف : وهو بمعناه .

والتدليه : وهو ذهاب الفؤاد عشقاً . لم تتمالك أن تحس بهذه المراتب السَّنية كلها حالاً بعد حال ، بخلاف لغات العَجَم فإنها لا يوجد فيها إلا لَفظة واحدة بمعنى : المحبة ، يطلقونها على الخالق والمخلوق .

وقد يظهر لى أن كثيراً من الصفات المحمودة فى الرجال تكون مذمومة فى النساء كالكرم مثلاً ، فإن كرم الرجل يغطى جميع عيوبه .. وهو مذموم فى المرأة .

وقسْ على ذلك النُّكر ، والدَّهاء ، والإطراء ، والفروسية ، والشجَاعة ، والحماسة ، والصلابة ، والخشونة ، والهمة إلى المراتب السامية ، والأمور الشاقة والأسفار البعيدة ، والنيات النائية ، والمطامع المتعذرة ، وغير ذلك ! .

والعلة فى ذلك .. كون المرأة تميل بالطبع إلى الشطط ، ومجاوزة الحد ! .

ودليله فى من تميل إلى العبادة والنسك ، فإنها لا تقف فى ذلك على أمد ، بل تتمادى فيه حتى تتهوس وتتخبل ، فتدعى المعجزات والكرامات ، وتعمد إلى الرؤى والأحلام ، ويخيل لها أن مَلَكاً يناجيها ، وهاتفاً يناغيها ، وأنها تُقيم بدعائها الأموات، وتُحيى الرفات؛ وربما قتلت أولادها على صغَر ابتغاء دخولهم الجَنَّة بغير حساب ، أو ولدت توأمين فادعت أنهما مَن غير أب ! .

وفى من مالت إلى الهوى . . فإنها تترك أباها ، وأمها اللذين ولداها وربياها ، وتقبل أن تجرى فى أثر رجل لا تعرف من صفاته شيئاً سوى كونه ذكراً .

فكل ما كَلَفتْ به المرأة كانت فيه أكثر تمادياً من الرجل .

فكَلَفَهن بالقراءة لا أدرى أين يكون مصيره . . والحامل لها على هذا الغلو والشطط إنما هو معرفتها من نفسها أنها أقوى على اللذات من الرجل .

فزيادة إطاقتها لذلك زادت فى تماديها فيه ، ومنه سَرَى فى غيره من الأطوار والشئون والأحوال الطارئة وفى بعض الغريزية أيضاً ، وذلك كالكلام والضحك ، والسَّبح ، والحركة .

وما قل منه فيها فى بعض الأحوال ، فإنك تراه زائداً في البعض الآخر ، زيادة فوق القياس .

ولعل كلامى هذا يسوء النساء إذا سمعن به وهن بين الرجال : حتى أعلم عين اليقين أنهن يضحكن له فى أكمامهن استحساناً وتعجباً ، حتى كأنى بهن يحسبن أنى عشت برهة من الدهر امرأة حتى أمكَن لى معرفة سرائرهم ، ثم مسخنى الله - تبارك وتعالى - رَجُلاً ، أو أنى علمت ذلك من هند ، وسعاد ، وزينب ومية . . حين كنت أشببّ بهن وأنا فتى وأكذب عليهن بقولى لهن إنى حرمت الكرَى ، وأجريت على نواهن عبراً ، وأنى قد فُتن لُبّى ، وفارقنى قلبى .

لا جرم أنه لم يفارقنى قط ، ولو فارقنى مرة ، لما رجع إلىّ أبداً ؛ لأنى طالما أدخلت عليه هموماً وأحزاناً ، لم تكن لتهم أحداً من الناس فى بلادى ، إذ كنت أحزن لتعصّى معنى من المعانى علىّ ، وأحاول اختراع شىء من البديع لم يكن أحد سبقنى إليه ، ظاناً أنه يقوم للناس مقام هذه المخترعات التى يزهى بها الكون عصرنا هذا فلم يتهيأ لى ، فكنت أبيت الليل فى يأس وكرب .

معاذ الله . . لم تكلمنى ، ، ما كلمت « هند » وإنما عرفت ما عرفت من الأحلام الصادقة ، إذ كنت أبيت ، وأنا مخلص للّه الإنابة ، والقُنوت . . فإن لم يصدقنى ، فليبيتن ليلة أو ليلتين تائبات مثلى ، وأنا ضامن لهن أنه يهبط عليهن من الأحلام الصادقة ما يوقفهن على أمور الرجال ! .

* * *

٢ ـ العشق فى آراء « الشدياق » :

(مذاهب العشق والعشاق)

* و « لأحمد فارس الشدياق » آراء أخرى فى مذاهب العشق فيقول :

« . . . . أقول : إن المحبة هى مما غُرس فى الطبيعة البشرية من يوم الوضع فى المهد . . إلى يوم الوضع على النعش .

فلابد لهذا المخلوق الآدمى من أن يحب ذاتاً من الذوات ، أو شيئاً من الأشياء ، أو معنىً من المعانى .

وكلما زاد حبه فى قسيم منها ، نقص فى قَسيمه الآخر ، وقد يكون أحدهما سبباً فى زيادة حبه للآخر .

مثال ذلك : من كَلَفَ بالشِّعر ، أو الغناء ، أو التصوير . . فكَلَفه هذا يكون باعثاً له على حب الذات الجميلة .

ومن كُلفَ بالعلْم ، والقتال ، والفخر ، والسيادة . . فلابد وأن تَقِلّ رغبته فِى النساءَ ؛ بل ربما لهى عنهن بالكلية .

ومن كُلفَ بالخيل المطهمة ، والسلاحِ النفيس . . فقد يكون كُلفه هذا شائقاً له إلى حُب الذات، أولاً ، وعدّ بعضهم هذا النوع السريانية وهم المنظفون للمراحيض ، وأسقطه غيرهم بدليل أنها حرفة يحتاج إليها الإنسان لتحصيل معاشه ، لا كلف من هَوىَ النفْس .

فهذه ثلاث حالات متسببة عن ثلاثة أسباب ، وهناك أيضاً ثلاث أحوال أخرى ، باعتبار القِلة والكَثْرة وما بينها :

الأولى : متعادلة ، وهى أن يحب المحب محبوبه كنفسه . . فلا تطيب نفسه بشىء ، ولا تهنئه لذة إلا إذا كان محبوبه مشاركاً له فى تلك اللذة .

وذلك صفَة الرجل قبل زواجه وبعده ، ولا تخلو هذه الصفة عن الرشد والبصيرَة .

والثانية : المتعدية . . أى المجاوزة للمتعادلة ، وذلك كأن يحب المحب حبيبه أكثر من نفسه ، وذلك صفة الأب والأم فى حُب ولدهما ، وصفة بعض العشاق .

أما الأب . . فإنه يَفْدى ولده بروحه ، ويحرم نفسه من اللذات والمسرات حتى يمتعه بها ، فإذا رأى نفسه عاجزاً عن الأكل والبعال ، ورأى ابنه يأكل ويباعل . . لذَّ له ذلك ، وهو مع هذا غير خالٍ أيضاً عن الرشد والتمييز .

فأما العاشق فإنه قد يؤثر معشوقه على نفسه ، غير أن أفعاله تكون مختلفة فى غير محلها ورقتها .

والثالثة : معلومة . . وهى أن يحب الإنسان محبوبه مع إيثار نفسه عليه ، وهو الأغلب .

وهناك أيضاً ثلاث أحوال أخرى مكانية ، وهى : القُرب ، والبُعد ، والتوسط . . ولها تأثيرات مختلفة بحسب اختلاف طباع الناس .

فالصادق الودّ يحب فى حالتى القُرب والبُعد على حد سَوَى ؛ بل ربما كان البعاد مهيجاً له إلى زيادة الشوق والغرام ، وما أحسن قول من قال فى هذا المعنى :

كأن الهوى شمس أبى أن يردها مهاة نوىً لا بل بها حرا

فأما الطرف الشَنِق فإنه لا يرسل الساق إلا ممسكاً ساقاً .

وثلاث أخرى زمانية ، وهى الصّبى والشباب والكهولة .

فمحبة الصّبىَ : أسرع وأعلق .

ومحبة الشباب أحر وأقوى .

ومحبة الكهولة أقر وأدوم ، والكهل يُقَدِّر محاسن محبوبه ومنافعه أكثر ، ومحبته له تكون أَمَرّ وأحلى ، فالمرارة لعلمه أنه قد عَرَّضَ نفسه للوم اللائمين ، وعذل العاذلين ، من الأحداث والأغرار ، ولإشفاقه دائمًا من ملل محبوبه إياه ، فقلبه أبدًا واجب ، وهمه بشأنه ناصب ، والحلاوة لزيادة معرفته بقدر محبوبه .

ولكن هواه والحالة هذه راهنًا متمكنًا .. فهو يعتقد بمجامع قلبه أنه ساعٍ فى أسباب سعادته وحظه .

ولها أيضًا ثلاث حالات أخرى باعتبار الاستطاعة ، وعدمها أعنى اليسر والعسر ، وحالة ما بينهما .

أما الموسر .. فإن محبته أبرد وأحول ؛ لأن غناه يحمله على استبدال محبوبه ، والتنقل من حال إلى حال .

فلتحذر النساء المحصنات هذا الصنف من الناس وإن ماس بهن ماسه ؛ إلا إذا كنا لا يخفن على سرهن وعرضهن ؛ لأن الغنى يستحل إفشاء الأسرار ، كما يستحل خزن الدينار ، وعنده أن كل شيء عبد درهمه ، وطوع نهمه ..

فأما الفقير .. فإن محبته أشط وألوع .. لأن فقره من حيث كان مانعًا له من إزالة الموانع التى تحول بينه وبين محبوبه ، لا يلبث أن يفضى به إلى اليأس ، أو الخيال ، أو الانتحار .

فأما المتوسط فإن حبه أعدل وأصح ، ولها أيضًا ثلاث حالات أخرى ، وهى الذُّل والعز والمساواة .

فالذل غالبًا : صفة العاشق .

والعز : صفة المعشوق .

ومن أعجب أنواع المحبة : الحب المختلط بالبغض ، وذلك كأن يهوى رجل امرأة وهى تهوى غيره ، وتتمنع عليه ، فيهيج بها وَجْده إلى

وصالها تشفيًا منها ، فإن فاز بها ، غلبت محبته على كراهيته ، وإلا فلا .. ولا يزال هذا دأبه حتى يسلو عنها .

والغالب أن المُحب لا يسلو محبوبه إذا عامله بالصد والحرمان ؛ إلا إذا ظَفَر بآخر شبيه له فى خَلْقه وخُلُقه ، وهيهات ذلك .

فأما بواعث المحبة ، فقد تكون عن نظرة واحدة تقع من قلب الناظر موقعًا مكينًا ، فتختلج فيه من محركات الوجد والشوق ما تخلجه عِشْر مُدة مَديدة .

وعندى أنه لابد ، وأن يكون المحب قد تصور فى عقله سابقًا صفات وكيفيات من الحسن ، فصبا إليها حتى إذا شاهدها حقيقة فى ذات من الذوات كما كان تصورها عَلِقَ بها قلبه وخاطره ، فكان كمن وجد ضالَّة ينشدها .

وقد تكون المحبة عن طول سماع عن شخص ، فيسترسل السامع إليه شيئًا فشيئًا حتى يكْلَف به .

وأكثر أسباب المحبة : النظرة ، والعِشْرة .

واعلم أن كثيراً من الناس قد عشقوا الصور الجميلة فى الذكور والإناث لغير دعارة وفسق ؛ وإنما هو ارتياح نفْس ووجْد بال ، ويؤيده ما ورد فى الأثر :

« مَنْ عَشِقَ فَكَتَمَ فَعَفَّ فماتَ ماتَ شهيداً » .

والعاشق فى هذه الحالة يرضى من معشوقه بأدنى شىء ، فالقُبْلَة عنده نصر وفَتْح وغَنيمة .

قال الشريف الراضى :

سلوا مضجى عنى وعنها فإننا   رضينا بما يخبرن عنا المضاجع

قلت لو كان لى تصرف فى هذا البيت لقلت عنها وعنى ، وقال ابن الفارض - رحمه الله :

كم بات طوع يدى والوصل يجمعنا　　فى بردتيه التقى لا نعرف الدنسا

وهذا العشق يسمى عند الأفرنج (العشق الأفلاطونى) نسبة إلى « أفلاطون الحكيم » ولا حقيقة له عندهم ، وإنما هو مجرد تسمية . ويُعرف عندنا بالهوى العذرى ، نسبة إلى عذرة : قبيلة فى اليمن ، لا إلى عذرة الجارية ، أى : بكارتها وافتضاضها وشىء آخر منها .

ويروى عن مجنون ليلى أنها أتته يومًا ، وجعلت تحدثه ، فقال لها : **إليك عنى فإنى مشغول بهواك .**

وللمتنبى فى هذا المعنى :

فشُغلتُ عن ردّ السلا　　م فكان شغلى عنك بك

وأحق النساء بأن تُعْشَق وتعزز التى جمعت إلى حُسْن خلقها : الأدب ، وحُسن المنطق ، والصوت .. وأسعد الناس حالاً : من كان له حبيب يحبه ، كما جاء فى بعض المواليات المصرية ، فإنه والحالة هذه يقدم على أصعب الأعمال ، وأعظم المساعى ، ويباشرها من دون أن يشعر بها ، لأن فكره أبدًا مشغول بمحاسن حبيبه ، فلو رفع صخرة فى هذه الحالة على عاتقه ؛ بل فِنْدًا ، لتوهم أنه رفع نعال محبوبه ، أو بالحرى قدميه .

ثم أنه مهما يلحق المحبة من طوارىء التنغيص والخيبة والحرمان ، وخصوصًا مضض الغيرة ، فإن عيش الخلى لا خير فيه ؛ لأن الحب يبعث على المروءة ، والنخوة ، والشهامة ، والكرم ، ويُلهم المحب المعانى اللطيفة ، والخواطر الدقيقة ، ويكسبه الأخلاق المرضية ، ويستوحيه إلى عمل شىء عظيم يذكر به اسمه ، ويحمد شأنه .. ولا سيما عند محبوبته .

وقلما رأيت عاشقًا به جفاء وفظاظة ، أو رثء وبلادة ، أو دناءة وخساسة .

قال بعض المزهين وأظنه من التيتائيين : لو لم يمنع من عشق المرأة شيء بعد التعفف والتورع سوى الاضطرار إلى حبها ؛ لكفى لأن الإنسان متى علم أنه مسخَّر لحُب شيء ، ومكتفٍ به ، مَلَّهُ بالطبع ، ونفر منه .

قال : فيكون حُب المرأة على هذا مغايراً للطبع .. وهذا إذا كان الرجل شَهْمًا ، عزيز النفس ، عالى الهمَّة .

فأما الأوباش من الناس ، فلا معرفة لهم بقدْر أنفسهم .. فهم يتساقطون على حب المرأة حينما عنَّت لهم وكيفما اتفق .

قلت : هو كلام من لم يَذُق الحب ، أو من كان مفرَّقًا ، ولو سمع أنثى تقول له يومًا : احمل يا روحى هذا الحمل من الحطب على رأسك ، أو أحب يا عينى كالولد الصغير .. للبّاها حاملاً وزَحَنْقَفًا[1] ! ..

ثم إن للعشاق مذاهب مختلفة فى العشق :

فمنهم من يهوى ذات التصنع ، والتمويه ، والعجب .

ومنهم من لا يعجبه ذلك ، وإنما يؤثر الحسن الطبيعى ، وأن يكون فى محبوبته بعض الغفلة والبلاهة ، إلى هذا أشار المتنبى بقوله :

حسن الحضارة مجلوب بتطرئة وفى البداوة حسن غير مجلوب

ومثل الأول مثل من يقدم له لون من الطعام ، وبه قسمة فيحتاج إلى التفحية ، والتفتيت .

ومثل الثانى مثل من به سَيْفَنَّية وسرْطميَّة[2] ، فلا يمنعه عدم التفحية

(١) الزحنقف : الزاحف على مقعده ..

(٢) سيفنَّة : طائر بمصر لا يقع على شجرة إلا أكل جميع ورقها .. والسرطم : الواسع الحلق ، السريع البلع .

والتوابل من أن يسلو ، ويلوس ، ويلشى ، ثم يلحس قعر الجفنة بعد فراغه منها .

فأما رغبة بعض الناس فى الغفول والبلاهة فإنها مبنية على أن المحب لا يزال يقترح من محبوبته أشياء كثيرة تبعث إليها الحاجة ، فمتى كانت ذات دهاء وذكاء خشى أن تملّه وتحرمه .

ومنهم من يزيد فى المرأة غرامًا إذا كانت ذات عزّة وشرّة ومعاسرة ، فيكون استرضاؤها أدعى إلى النشاط والسعى ، وهذا ما يفعله فى الغالب من يتفرغ للهوى ويتصدى له من كل جهة .

ومنهم من يعشق المرأة لاتّسامها بسمَة شرف وسيادة أو وجاهة ، وذلك دأب ذوى الطموح والاستطاعةَ ، ومن هذا الصنف من إذا رأى امرأة وضيعة تشبه امرأة شريفة ، عشقها لأجل حصول المشابهة فقط .

ويقال لأهل هذا المذهب المشبهية ، وهو فى النساء أكثر .. فإن المرأة لا تكاد ترى رجلاً إلا وتقول لعله يشبه بعض الأمراء الغابرين ، أو الحاضرين ، أو الآتين .

ومنهم من يعشق من بها ذلة وانكسار وملاينة، وذلك شأن ذوى الرفق والرقة .

ومنهم من يعشق من على طلعتها آثار الحزن والكآبة والفكرة ، وهو مذهب ذوى الحنين والطرب .

ومنهم من يعشق ذات البشر والطلاقة والأنس، وهو خُلُق المحزونين المبتئسين ، فإن النظر إلى مثل هذه ينفى الهم ، ويجلو الكرب والغم .

ومنهم من يعشق من بها مَرح ونزق وطيش وثرثرة وقهقهة ، وهو دأب السفهاء والجهلاء .

ومنهم من يعشق المرأة لأدبها ، وفهمها وحسن كلامها ، ومحاضرتها ، وسرعة جوابها ، وهو مذهب العلماء والأدباء .

ومنهم من يعشق من تكون كثيرة الحُلىّ ، والتأنق فى الملبوس ، كثيرة الغنج والتمويه ، وهو طريقة ذوى السرَف والشطط .

ومنهم من يعشق الماجنة المتهتكة المستهترة ، وهو شأن الفساق الفجار .

ومنهم من يعشق الخيتعور ، الشهوانية المتلعجة الطفسة ، وهو خُلُق من بلغ منه العهر كل مبلغ .

ومنهم من يعشق اللاّعة الخريدة العفيفة ابتغاء أن يفسدها ، ثم يتباهى بذلك بين أقرانه ، فإذا رضيت له : ملَّها ، أو أرادها أن تكون على غير تلك الحال وهو عندى شر من عاشق المتوهجة .

ومنهم من يحب اجتماع هذه الصفات المختلفة كلها فى محبوبته بحسب اختلاف الأحوال .

هذا فى الخُلق ، فأما فى الخَلق :

فالنحيف يهوى السمينة ، وبالعكس .

والأسمر يحب البيضاء ، وبالعكس .

والطويل يحب القصيرة ، وبالعكس .

والأملط يحب كثيرة الشعر ، وبالعكس .

أما النساء ، فأحب الرجال إليهن الفارس الأبتع . الشجاع الأروع .

فأما الغنى والفقر ، فلا ضابط لهما ، فإن الغنى يتهافت على حب الفقيرة ، كما يتهافت على حب الغنية .

بل البخيل من الأغنياء يؤثر حب الفقيرة طمعًا فى أن يرضيها بالقليل من المال .

والغالب أيضًا : إيثار حب الجيل الغريب للاستطلاع على ما عنده من الغرائب التى تتصور المخيلة وجودها فيه دون غيره؛ إلا إذا منع مانع جهل بلغته فحِ يحصل للمخيلة انقباض فى تماديها .

وكما أن لطف النساء وقلفطتهن تعجب الرجال ، ولا سيما فى الفراش .. كذلك كان يعجب النساء من الرجال تراراتهم وشَيْظَميَّتهم .. فلا تكاد امرأة ترى رجلاً على هذه الصفة إلا وتقول فى قلبها : عند هذا كفايتى وغنائى .

وقد لحظت العرب هذا المعنى باشتقاقهم الطَّول من الطُول ، غير أن النساء على الأعم يجنين اللذات من كل مجنى ، ويكرعن من مواردها ما ساغ وما أغص ، فمثلهن كمثل النحلة تجنى من الزهر وإن يكن على الدمن .

فأما الغيرة فهى خُلق طبيعى فى كل بشر إذا كان سليم الذوق ، فإن الإنسان يَغار على متاعه من أن ينتهكه غيره .. فكيف على حُرمته ! .

وما يقال من أن الإفرنجة ليس لهم غيرة على نسائهم ، فليس على إطلاقه ، فإن منهم من يقتل زوجته ونفسه معًا ، إذا عَلِمَ منها خيانة . نعم إنهم يتساهلون معهن فى أمور كثيرة ربما تُعَدُّ عندَ المشرقيين قيادة ، إلا أنها نفس الأمر وقاية من الخيانة ، إذ قد تقرر عندهم أن الرجل إذا حظر امرأته عن الخروج وعن معاشرة الغير أغراها بالضمد ، بخلاف ما إذا أرضاها بهذه اللذات الخارجية .

ثم إنه لما علم اجتماع المستعسلين أى الفارياق والبنت خلافًا للعادة المألوفة . ذاقت أمها من ذلك مرارة الصَّاب ، فاستشارت بعض أصدقائها فى أمرها ، **فقالوا لها** : لسنا نرضى بمصاهرة هذا الرجل لأنه من الخرجيي ، وأنت من أعز بيت من السوقبن وهما لا يجتمعان ، فقالت لهم : ليس هو من جرثومة الخرجيين ؛ بل هو دخيل فيهم .

قالوا : لا فَرْق فى ذلك رائحة الخرج ساطعة منه وقد ملأت خياشيمنا ، وحذروها منه غاية التحذير ، مع أنى قد حذرتهم وأمثالهم .

فلما علَمت البنت بذلك .. نبض فيها نبض الخلاف ، وقالت : ليست هذه الفروق من مصالح النساء ، وإنما هى مصلحة من اتخذها وسيلة للمعاش والجاه والمقصود من الزواج ؛ إنما هو التراضى والوفاق بين الرجل والمرأة ، وإن أبيتم ذلك فها أنا أنذركم أنى لست من السوقيين فى شىء .

فرأت أمها أن تغيب بها أيَّامًا عن ذلك المحل رجاء أن يبعثها البُعد على السلوان ، فهاجت مع جمع عواطف الهوى فى كل من العاسل والمعسول ، وإليه أشار « أبو نواس» بقوله : دع عنك لومى .. فإن اللوم إغراء .

فلما رأت الأم أن لا إشارة تمنع البنت من الاشتيارة ، ولا جَزْر يكفها عن الجزر[1] .. رجعت إلى منزلها واستدعت بالفارياق وقالت له : قد علمت أن السوقيين لا يبغون مصاهرتها ، فإن كان عزمك على أن تتزوج ابنتى ينبغى لك أن تتسوق ولو يومًا واحدًا .

قال : لا بأس ، فعلى هذا تسوق يوم عقد الزواج ، وقرت عين كل منها ومن البنت .. ثم أحضرت آلات الطرب ليلاً ، وأديرت الكؤوس ، وزَهَا مجلس الأُنس والسرور ، والفارياق مواظب فيه على خدمة إدارة الكأس ومُعيد على العازفين الإطراء ، وقولة آه وإيه ، حتى إذا كَلَّت يداه ولسانه ، ورأى أن عزم الشرب أن يسهروا الليلة كلها إلى الصباح ، انسل من بينهم ، وصعد إلى السطح لكى يستريح ، وكانت الليلة مقمرة من ليالى الصيف .

---

(١) الجزر : شور العسل من خليته .

فلما أبطأ عليهم ، ظنوا أنه تفلت من الأرْبة ، فأخذوا فى التفتيش عليه كما يفتش على امرأة فالك أو فارك ، فلما وجدوه وعلموا أن نيته مخالفة لنيتهم ، أخلوا لهم ولعروسه حجرة ، وهمُّوا بالانصراف ، فقالت الأم : لا .. أوَ تنظروا بأعينكم البصيرة[1] ..

وسبب ذلك : أن عادة أهل مصر فى الغالب : هى أن يتزوج الرجل المرأة من دون أن يعاشرها ويعرف أخلاقها ، وإنما ينظر إليها نظرة واحدة بأن تناوله مثلاً فنجان قهوة ، أو كأس شراب بحضرة أمها ، فإن أعجبته .. خَطَبَها من أهلها ، وإلا كَفَّ رِجْلَهُ عن زيارتهم .

ومنهم من يتزوج ، ولم يكن رأى امرأته قط ، وذلك بأن يبعث إليها أمه ، أو عجوزًا من أقاربه ومعارفه ، أو قسيسًا .. فيصفُونها له بمقتضى ذوقهم وخبرتهم ، والغالب أن أم البنت ترجو القسيس ليجيد صفة بنتها ، فيرغب الرجل فى التزوج بها .

ومنهم من يتزوج امرأة قاطنة فى بلاد بعيدة فيبعث إلى أحد معارفه فى تلك الجهة ليَصفْها له فى كتاب ، ثم يستخير اللّه ويرتبق ، ومع ذلك فإن عيش هؤلاء المتزوجين علىَ هذا النمط يكون هنيئًا .

فأما فى بلاد الشام .. فعادة أهل المدن كعادة أهل مصر ، وعادة أهل الجبل مغايرة ، فإن الرجل يكون هناك يتمكن من رؤية المرأة ومعرفة أخلاقها .

هذا .. ولما كان الفارياق قد تعدى حدود العادة بمصر فى كونه اجتمع بالبنت مرارًا عديدة فى حضور أمها وفى غيابها . أرادت أمها أن تنفى عنها العار بإظهار علامة البكارة ، حتى يشيع خبر براءة البنت فى جميع البلاد ، فإن أكثر الناس لا شُغْل لهم إلا الكلام .

---

(١) شىء من الدم يستدل به على الرمية ودم البكر .

فاجتمعت الزُّمرة وراء الباب بعد أن جمعوا بين العروسين ، وطَفِق الواحد منهم ينادى ويقول : **افتح الباب يا أبا مزلاج .**

فظن الفارياق أنه يريد الدخول عليهما ليعلمه كيف يكون العمل . ففتح له فقال له : ما هذا الباب عنيت ، وإنما أردت باب الفَرَج .

فرجع إلى عروسه ، وإذا بآخر يقول : **لج القبة يا ولاج .**

وآخر : ثجر الطعنة يا بجاج .

وغيره : أرو الصدى يا ثجاج .

وآخر : أزل الزَغَب يا حلاج .

وغيره : أفرغ السَجْل يا خلاج - أسرع الوطء يا زلاج - املأ الوطب يا زمّاج - ملل الململ يا معّاج - أغطس فى اللجة يا غاطس - افقس البيضة يا فاقس - أجل المسواك يا وامس - تسور السور يا معافس - روّض المُهرة يا فارس .

وما زالوا به حتى شام أبا عُمَيّرة ، وناول أمها البصيرة .

فتهللت منهم الوجوه فرحًا وحبورًا ، وصفقت الأيدى استبشارًا وسرورًا،ونطقت الألسن بالتبرئة . وختموها بالتهنئة ، ثم انصرفوا ،كأنهم قد قفلوا من غزوة نائمين ، وكادت الأم تطول عن الأرض شبرًا لهذا الفتح المبين ..

و « الناس فيما يسلكون دروب العشق والزواج .. مذاهب » .

* * *



العشـــق

عنــد عبــاقرة

القـــرن العشـــرين

العشــق

هــو الحــب ذو الغــايات الثــلاث[1]

(**تعريف العشق**) – العشق : إفراط الحب ، وتعريفه : انجذاب النفس إلى الشخص الجميل ، ولا يكون إلا بين رجل وامرأة فقط ؛ لأنه مهما اشتد الحب بين غيرهما ، فلا يشابه العشق ولا يبلغ إلى درجته ، وقد عُلمَ أن أول حُب ، كان بين الرجل والمرأة ، وكان في بادىء أمره متردداً لا يكاد ينعقدُ حتى ينحل ، ثم ينعقد فينحل .. وهلُمَّ جرّاً .. تبعًا لحركة الشهوة الحيوانية ..

ثم جاء التآلف فوطده ، وجعله ملازمًا ؛ ولكنه بقي بسيطًا فاترًا إلى أن ترقّى الذوق العقلي في الإنسان إذ تهذبت أخلاقه ، وتدمثت طباعه على مرور الأيام .. فجاء الجمال موقدًا لنيران الحب ، فبلغ الحب إلى درجة « **العشــق** » .

(**الشعور الأول بالعشق**) : بحسب مبدأ الوراثة أصبح الحب على مرور الأجيال فطريًا في الإنسان ، يكمن فيه منذ نشأته إلى أن يدرك الإنسان سن البلوَغ ، فيشعر به عفواً لأقل طارئة ، وربما شعر به وهو غلام صغير ، وذلك أنه يجد في نفسه ، ميلاً إلى الجنس اللطيف إذا كان فتى ، أو إلى الجنس النشيط إذا كان فتاة من غير أن يهوى شخصًا بعينه ؛ بل يقيم في مخيلته خيال محبوب يتعشقه ، ثم يتدرج إلى المغازلة فيعلق شخصًا معينًا .

---

(١) نقولا بن الياس بن نقولا حداد (١٢٨٩ - ١٣٧٣هـ/ ١٨٧٢ - ١٩٥٤م) .

ويؤيد ذلك خلو الشغف الأول من غاية الحب القصوى أى الوصال بأقصى معنى .. فالفتى مثلاً فى أول شغفه لا يتمنى من محبوبه إلا أن يعلم أنه يحبه .

وهو يشعر بقناعة نفسه بهذه الأمنية لأنه لا يكون قد فهم بعد « الغاية » التى جعل الحب وسيلة لها ، أو ربما ظنها شيئًا ثانويًا معلولاً للحب لا علة له أو داعيًا إليه ؛ ولكنه لا يلبث أن يطمع بأكثر من ذلك متى استمال حبيبه إليه ولا يقف طمعه إلا عند الوصال .

وبما أن الشغف يظهر فى أوائله غير متجه إلى الغاية يعتبر مستقلاً عن الحب الأصلى القديم ، أى الميل المتبادل بين الجنسين . . إلى التزاوج فقط ، وهو لا يظهر إلا حينما يطمع العاشق بالوصال .

وظهور الشغف قبل الحب الأصلى يثبت أن الشغف أصبح أرسخ فى طبع الإنسان من الحب المذكور ، وأقوى منه . . مع أن هذا الحب طبيعى .

والعشق فى الأصل اكتسابى ؛ لكنه نشأ ، ونَمَا مع الزمان إلى أن تأصل ، وصار أشد من الحب . .

(**غاية العشق**) : قلنا مما تقدم أن الغاية من الحب المتبادل بين الرجل والمرأة فى الأصل إنما هى الوصال بأقصى معناه .

ولهذا كان الإنسان قديمًا كالأعجم أى أن الرجل يميل لأى امرأة ، والمرأة تميل لأى رجل بلا تمييز أو استحباب .

وتعدد الزوجات وتعدد الأزواج (عند بعض الأمم) ، والطلاق . كل هذه من آثار هذا الحب .

وغاية العشق فى أوائله : التمتع بالجمال فقط وهذا هو سبب الانتخاب الشخصى . . أى أن الرجل يعشق امرأة معينة . . والمرأة تعشق رجلاً معينًا .

فالحب إذاً بين الجنسين اللطيف والنشيط .

والعشق بين شخصين كزيد وهند .

على أن العشق لا يلبث طويلاً قبل أن يصير مشتملاً على الحب ، وعاضداً له .. فيصير صاحب الغايتين معاً : التمتع بالجمال .. والتلذذ بالوصال .. وبالزواج يستوفى الغايات الثلاث .

* * *

مبادىء العشق[1]

للعشق أحوال يُعرف بها ، ونواميس يجرى عليها تُعرف بمبادئه .. وهاك أهمها :

١ - التمتع بالجمال :

العاشق لا يهوى محبوبه لابتغاء نفع أو اتقاء ضر . . بل لارتياح نفسه إلى جماله فى بادىء الأمر فيتمنى أولاً أن يراه . . ثم أن يكون رفيقه الدائم . . ثم أن يواصله .

٢ - الحنين :

عواطف العاشق الغرامية تهيج عند انتباهه إلى حبيبه وتذكّره جماله فيصبو إليه ، ويتوق إلى لقائه ، ويكثر من المحادثة عن كمالاته ، وضروب جماله حتى أنه مهما كان موضوع حديثه مع صديقه يحوله إلى الحديث عن حبيبه .

٣ - الإصرار :

عواطف العاشق تستولى على إرادته حتى لا يستطيع أن ينفك عن عشق محبوبه ، مادام يعتقد أن فيه جمالاً . . ولذلك فلا يصغى إلى كلام العذل والوشاة مهما تقولوا ، ولا يمكن أن ينفك عن عشق حبيبه إلا إذا غيَّر اعتقاده ، وهيهات أن تقبل التغيير .

٤ - الإحساس مع الحبيب :

العاشق يلاحظ انفعالات محبوبه وحالاته فيفرح ، ويحزن معه ليزيد فرحه أو يخفف حزنه فكأن بينهما اتصالاً محسوساً حتى ينفعل كل منهما بما ينفعل منه الآخر .

---

(١) نقولا حداد (١٢٨٩ - ١٣٧٣هـ/ ١٨٧٢ - ١٩٥٤م) .

٥- الاسترضاء :

العاشق يحاول إرضاء حبيبه واسترضاءه ما استطاع فيجتنب كل ما يسيئه ، ويأتى كل ما يسره طوعاً لعواطفه لا لإرادته . . ولهذا يتوقع أوامر حبيبه ، ويُسَر أن يطيعها . .

٦ - الإيثار على النفس :

العاشق يؤْثر خير حبيبه على خير نفسه ، ويبذل كل مرتخص وغالٍ لمصلحته . . لأن مبالغته بكرم النفس تثبت إخلاصه وشدة غرامه ، وتستعطف حبيبه عليه مكافأة له على هذا التفانى . .

٧ - فخر العاشق بحسنات حبيبه والتعامى عن سيئاته :

العاشق يعمى عن سيئات حبيبه ، فيراه كله حسنات أو كل الحسنات مجموعة فيه دون سائر الناس . . ولهذا يفتخر به كما يفتخر بنفسه ، ويفتخر بفوزه دون غيره بحب حبيبه وانعطافه .

وقلما يُسر المرء أن يكون محبوبه أفضل منه . . ولهذا يجتهد أن ينافسه ولكنه لا يحسده .

٨ - المدح :

العاشق يبالغ بإطراء محاسن حبيبه ومحامده ومآثره .

والنساء أكثر إطراء من الرجال ، ويغلب أن يتذرعن بالإطراء إلى التحبب ، فيُظهرن الإعجاب بشجاعة الرجال وكرمهم وذكائهم ومواهبهم إلخ . . فيجتهد الرجال بكسب المزايا الحميدة طمعاً بإعجاب النساء .

ولهذا . . كانت نساء العرب يحضرن مواقع القتال ليُثرْنَ النخوة فى رءوس الرجال .

٩ - التشبه :

العاشق يحاول أن يحاكى حبيبه بأخلاقه وعواطفه . . وأن يتصف بصفاته إذا كان أرقى منه لكى يستميله إليه بالصفات التى هى فيه ، ويغلب أن يكتسب العاشق من حبيبه أحسن صفاته .

١٠ - الغيرة :

وهى إباءة العاشق أن يميل حبيبه إلى سواه ، ولا شىء أنكى له مثل ذلك . . بل هو أصعب الأمور عليه .

وقد يفتخر بعض العشاق بسبب الغيرة أو يجنُّون أو يسقمون .

وقد تبلغ غيرة بعضهم أن يكبر عليه أن تميل زوجته إلى غيره بعد مماته .

فقد حكى عن أحدهم أنه طلب إلى زوجته وهو يحتضر أن يُقَبِّلَهَا قُبْلَةَ الوداع . . فَعَضَّها لِيُشَوِّهَ وجهها . . حتى لا يتزوجها أحد بعد مماته .

ويقال : إن الغيرة ملح العشق ، فإذا تجاوزت حَدَّها ، أصبحت مكروهة من الحبيب ، وانقلبت إلى عداء .

والغيرة أفضل دلائل العشق .

١١- العفة :

وهى اقتصار العاشق على عشق حبيبه فقط ، وهى تلازم الغيرة لأن الغيور الذى يكره أن يميل حبيبه إلى سواه ، لا يميل هو إلى غيره .

ولا يشذ عن هذا المبدأ إلا الشَّرِه ، وعشق الشره أقرب إلى البهيمية منه إلى الإنسانية .

أما مدة العشق ، فلا ضابط لتحديدها إلا مدة تلاؤم الحبيب .

يقال : إن « جميلاً » بقى يشبب بعشيقته « بثينة » نحو عشرين سنة إلى أن قضى فى عشقها .

وليس ما يخفف الشغف مثل الفراق والالتهاء عن الحبيب بشىء آخر ، ولهذا قيل : « **البُعْد جفاء** » .

قال « **باكون** » الفيلسوف الإنكليزى : « **إن أرباب الأعمال الخطيرة قلما يعلقون فى شَرَك الهوَى** » .

وقال « **أوفيه** » الشاعر الرومانى : « **البطالة سبيل الحب** » . .

١٢ – الدلال :

تظاهر العشيق بعدم الاكتراث بالعاشق ، ويكاد يختص بالنساء والغرض منه إثارة الوجد ؛ لأن العاشق متى كان متأكداً من حب عشيقته ، ورأى منها دلاً ، وتيهاً ، يزداد ولوعاً بها لأن « **كل ممنوع متبوع** » .

ويقال : إن علّة الدلال فى الأصل عادة قَنْص النساء قديماً ؛ لأن المرأة كانت إذ ذاك كالخادمة الرقيقة (ولم تزل عند بعضم كذلك) فكانت تهرب من الزواج احتفاظاً بحريتها ، وحرصاً على راحتها ، وكان الرجال يطاردونها ليقتنصوها . . ومن ثَمَّ صاروا يشترونها من أبويها وهى تتمنع إلى أن تملكت فيها هذه العادة وتوارثها الجنس كله ، وصارت الفتاة ترفض طالبيها بالغريزة والحياء من آثار هذا الرفض .

أما الأوروبيات فقد خلعن بُرقع الحياء ، وجعلن يقتنصن الرجال اقتناصاً ، ولا بدع بذلك لأن السبب عينه قد انعكس ، إذ أصبح الرجال عبيد النساء فى عصر المدنية . . فصاروا يهربون منهن ، وأولئك يشترونهم بالمال أى بالبائنة (الدوطة) فسبحان مُبَدِّل الأحوال .

١٣ – المداعبة :

كثيراً ما تلذ المضاجرة للعشيقين . . فيكايد أحدهما الآخر ، متظاهراً بأنه يقصد إغاظته ، وهو بالحقيقة يتحاشاها ، ولا يجرأ على

مكايدته إلا لعلمه أنه (أى عشيقه) عالم بأنه لا يقصد من المكايدة إلا المداعبة .

ولهذا يتظاهر العشيق بأنه اغتاظ ، فيغضب ، ويجفو بحسب الظاهر ؛ ولكنه يضطرم حُباً في الباطن . . وهكذا يفترق العاشقان على جفاء ، وعما قليل يحاولان أن يجتمعا مصادفة ، فتومض من خلال عبوسة كل منهما ابتسامة ، فيتعاتبان ، ويكون العتاب تفسيراً جديداً للواعجهما وأشواقهما .

وهكذا يقضيان أيام الهوى بين تودد وتجاف .

والغرض من المكايدة أو المضاجرة فى الأصل إنما هو امتحان كل من العشيقين الآخر ، ليعلم مبلغ حبه ، وما إذا كانت الطوارىء تُغَيِّره أو إذا كانت الظواهر تغيّر الظنون وتفسد النوايا . . ثم تسوهل بها ، فصارت تستخدم للمداعبة .

١٤ - العتـــاب :

العتاب يساوى الغيرة ، وكذلك قيل : « **العتـب على قـدر الأمـل** » .

ويكثر العتاب بين الحبيبين لا لشك أحدهما بإخلاص الآخر ؛ بل للتذرع به إلى إيثاق المحبة . . ولهذا يليه التسامح سريعاً ، وقد يكون العتاب امتحاناً للحب إذ يُلاحظ العاتب درجة اعتذار المعتوب عليه ، وعليها يقيس مقدار حبه .

وقد يستبكى المحب حبيبه بعتابه لأنه يرى بكاءه مظهراً من مظاهر الجمال ، أو يتذرع به إلى الإشفاق والانعطاف ، ونحو ذلك .. وإذ ذاك يكون العتاب صنفاً من المضاجرة .

وقد يكون الباكى متباكياً .. تفنناً فى التحبب ! .

***

(حالات العشق ومذاهبه)

للعشق حالات عديدة مختلفة باختلاف الأشخاص والظروف المكانية والزمانية ، ونحو ذلك مما لا يمكن حصره تماماً ، وهاك أجلاها :

١ - العشق باعتبار السن :

عشق اليافع : أسرع وأشد وأقرب إلى الانحلال ؛ لأنه لا رأى فيه للبصيرة ، إذ يغلب فيه هوى النفس على العقل .

وكلما تقدم الإنسان فى السن اعتدال عشقه ، واستتب ، وكثر صده ، وتودده ، ورقته .

فعشق الشاب أَمَرُّ وأقوى . . وعشق الكهل أثبت وأدوم . .

٢ - العشق باعتبار الزواج :

العشق قبل الزواج : أشد وأَمَرّ ، والغاية منه : التمتع بالمجال والوصال ، وبعد الزواج : أكثر اعتدالاً ، والغاية منه : التضامن والتعاضد والتمتع بجمال الخلق والوصال .

على أن الرجل أكثر حباً من المرأة قبل الزواج ، لتمنُّعها وصعوبة الوصول إليها ، وهى أكثر حباً منه بعد الزواج ، لحاجتها إليه .

٣ - العشق باعتبار المكان :

يختلف عشق الناس فى حالتى القُرْب والبُعْد . . على أن الغالب أن يشتد الحب بالقرب ، ويفتر بالبعد .

ولهذا قيل : « البعد جفاء » ولكن أخلص الحب أدومه فى البعد ، وأشد الوجد عند تعذر الوصول إلى الحبيب الحاضر . .

٤ - العشق باعتبار الجاه والثروة :

الفقير أثبت في العشق من الغنى ، لتعذر حصوله على أحباء كثيرين . . فحبيبه عنده كل الدنيا ليعجزه عن الوصول إلى غيره .

والغنى أفتر فى العشق وأحول عنه ، لاستطاعته استبدال حبيبه بآخر . . إذا اقتضى أمرٌ .

فمحبوب الفتى الغنى عُرضة للهوان . . ومحبوب الفقير سُلطان . . وهناك حالات عديدة يتعذر حصرها ، وكلها تتمشى على ناموس . . فلكل أن يلاحظها ويتفلسف بها كما يشاء .

٥ - مذاهب العشاق :

للعشاق مذاهب مختلفة لاختلاف أخلاقهم وأمزجتهم وأحوالهم . . ولولا هذا الاختلاف لما كان التحاب ، وهاك أشهر المذاهب :

العاقل يعشق المتجملة بأدبها وحشمتها وحسن أخلاقها ؛ لأنه ينظر إلى مصلحة نفسه .

والجاهل يعشق المتبرجة ، لأنه يطاوع شهواته .

وذو الطبع الشعرى يهوى المتصنعة المتبرجة ؛ ليتخيل محاسنها ويتشبب بجمالها .

والفيلسوف يهوى ذات الجمال الطبيعى ؛ ليناجى عواطفها .

والمتفرغ للعشق يهوى المعجبة المتمنعة ؛ لينشغل باستعطافها .

والطامح إلى العُلَى يهوى ذات الجاه والشرف .

والطامع بالدنيا . . يهوى المثرية .

ورقيق العواطف يهوى المتمسكنة الضئيلة ؛ليعزها .

والطروب قد يهوى الكئيبة المبتئسة ، ليسرها .

والشجي يهوى الأنيسة المطْلَقَةَ الوجه ؛ ليستأنس بها .

والمسرف يهوى المتأنقة باللبس ، والتحلى إذ تسهل عليه استمالتها .

والفاضل يهوى المتعففة المحتشمة .

والشهواني يهوى المتهتكة .

وضعيف الإرادة يهوى المتدللة لأنها تفتنه سريعاً .

وفى الأمزجة يغلب أن يكون الحبيبان مختلفين :

فالسمين يهوى الهزيلة ، وبالعكس .

وذو المزاج الدموي مثلاً يهوى ذات المزاج العصبى ، وبالعكس . . إلخ .

وما قيل عن الرجل يقال عن المرأة .

* * *

(تأثيرات العشــق)

تأثيره فى القلب :

يشعر العاشق بلذة فائقة فى عشقه ، يحتمل لأجلها كل ما يلاقيه من هوان الهوى ، ولواعج الغرام .

• ومنشأ **هذه اللذة** : الأمل بالتمتع بالحبيب ، والأمل يصور المأمول مجسماً جداً . . ولهذا تكون لذة العاشق بالوهم أضعافها بالحقيقة . . فمتى أدرك المأمول . . خَمَدَ وَجْده .

تأثيره فى العقل :

يقال : إن العشق نوع من الجنون ؛ لأن العاشق يشابه المجنون بالإصرار على رأيه ، وهو يتجاوز حد الاعتدال فى أكثر أحواله ، ويضحى مصالحه فى سبيل عشقه ، ويضحى حياته .

وقد يشتد غرام بعضهم فيذهب بعقله .

تأثيره فى الصحة :

يستولى على العاشق الأرق لتنبه أعصابه الدائمة وتقل قابليته للطعام لانشغال باله ، فيسقم ، ويضنى ، ويسهل على العلل والأمراض أن تتمكن فيه ، ولا دواء فى مثل هذا الحال أفضل من الفراق .

وإذا كان العشق لغاية نبيلة كانت تأثيراته شريفة وهاك أهمها :

تأثيره فى الإرادة :

العشق سلطان لا مَردّ لأحكامه . . يستعبد العاشق فيستسلم ، وينقاد لحبيبه انقياد الجواد لمتطيه .

تأثيره فى الطبـع :

الحب يلين الطبـع ، ويدمث الخلـق . . لأنه مهما كان المرء شرسًا فـلا يعـامل حـبيبـه إلا باللطف والرقـة واللين ، ولـوتكلُّفـاً لكى يرضـيـه ويعجبه ويستعطفه .

ومع الزمان وتكرار هذه المعاملة ، يتعود تلك الصفات والعادة ملكة فتصبح معاملته لسائر الناس ألطف منها قبل العشق .

تأثيره فى المحـاضرة :

الحب يعلم المحب آداب المجاملة ويفتح ذهنه ويفك عقلة لسانه فى التـخـاطب لأن الحـال يضطر المحب أن يكون أنيـسًا ، ظريفًا فى عشْرَة محبوبه ، فصيح اللفظ ، عذْب الحديث ، سامى الفكر ، طاهر اللّسان لكى يعـجبه ، وكل مـا ينقصه من هذه الموصوفات يتعود الاتصاف به تدريجيًا . .

تأثيره فى الآداب :

الحب يؤدب المحب إذ يضطره إلى الظهور بمظهر الفاضل لدى حبيبه لكى يعجبه ؛ ولذلك يجتهد العاشق أن يكون أديبًا فى كل حال ، وكريم النفس ، وحَسَن السيرة .

تأثيره فى المقـام :

الحب يدفع المحب إلى أن يرفع مقام نفسه فى الهيئة الاجتماعية ليرضى حبيبه ، فيجد وراء الثروة ليكسب بها الجاه ، ويرغب فى العلم ليجمّل مقامه ، ويحلى وجاهته .

تأثيره فى السيرة :

الحب يصون المحب من البطالة واللهو والفجور لأنه يشعر أنه مدين بالعفة لحبيبه ، والمحب يلتهى بعِشْرة حبيبه عن كل عادة سيئة ومضرة ويقنع بلذة الآمال .

تأثيره فى الهيئة الاجتماعية :

يستفاد مما تقدم أن للحب تأثيراً فى الهيئة الاجتماعية ؛ لأنه يضطر كُلاًّ من الرجل والمرأة أن يظهر بمظهر يستحبه ويستحسنه الآخر .

وإذا بحثت عن أسباب تزايد الكماليات واهتمام الإنسان بها اهتمامه بالحاجيات ، رأيت أن السبب الأكبر هو الحب .

فلولا هـذا الميـل المتبـادل بين الجنسين لَمَا كان الناس يجدّون وراء الغنى ، ليلبسوا الحرير ، ويتحلوا بالجواهر الكريمة ، ويسكنوا القصور الشاهقة ، ويزينو القاعات بالرياش الفاخرة .. بل كانوا يكتفون بأبسط المعايش ، وأفضلها للراحة والهناء .. وما حاجة الإنسان إلى الحُلى النفسية والملابس الفاخرة ، وكل أدوات الجاه والعز .. أليس على الغالب ليعجب حبيبه ويستميله إليه بمحاسنه وحسناته ، ولقد صدق من قال : « الحب أعظم ما فى الوجود » .

* * *

١ - العشق عند « مصطفى صادق الرافعى » :

(من هـــو العـــاشــــق ؟)

* يقول « مصطفى صادق الرافعى » : (١٨٨٠ - ١٩٣٧) :

- « لو سـألتنى « من هو العاشـق ؟ » لأجبتك إنه لن يكون عاشـقًا إلا من أحس أنه قُذفَ به فى الابتسامات والنظرات بمرة واحدة إلى مهبط السموات ، فيشعَر أن نعيمه أهنأ من نعيم الأرض ، وأن عذابه أشد من عذابها ، وكأنه - إذ يتنعم - لم يُصبْ أسباب النعيم .. بل أسباب الخلود فى الجنة ، وإذ يتألم ، لم يجد مادة الألَم ؛ بل مادة نارية خالدة على قلبه .

« كـذلك .. لا يبـدأ الحب إلا من آخـر الدنيـا ، فـهـو - دائمًا - على طرفها ، ولو نصب ميزان الآخرة لعاشق من العشاق المتيمين ، ووضعت كُرة الأرض - بكنوزها وممالكها - فى كفة منه .. ثم وُضع حبيبه فى الكفة الأخرى ، لرجحت هذه عنده ؛ لأن فيها حبيبه وقلبه ، وبقيت الأخرى كأن لم يكن فيها شيء ، وإن كان فيها المشرق والمغرب ! .

« وأعـجب من هذا .. أننا نجـد - من الزهاد والمتنسكين - من يقطع دهره كله متعبدًا ، منصرفًا عن الدنيا إلى ما بعدها ، جاعلاً لسان حواسه الأرضية [1] دائمًا سـمـاوى اللغـة ، ثم لا يجـد - مع هذا النسك وهذه الروحـانيـة - من يقـول إنه كـالملائكة .. على حين أن الكلمـة الأولى التى يقـولهـا العـاشق فى وصف حـبيبـه سـاعـة يمس قلبـه : إنه مَلَك ، وإنه من السـماء ، وإنه قانون من قوانين القدر ، وإنه الوجود كله مختصرًا فى نفس إنسانية ، والطبيعة كلها ممثلة فى ذات لذات أخرى ، وإنه مظهر من مظاهر التقديس ، لا تحيط به إلا معانى الجلال والعبادة .. فلا يزال القلب يركع أمامه ويسجد » !!

* * *

---

(١) كناية عن الرغبات والشهوات ؛ لأنها هى نطق الحواس ولغتها .

* ويقول « الرافعى » :

- « الحبيب محدود بعاشقه فقط ، وهذا مثال يقرب للعقل كيف يفهم الخلود الذى لا يفنى ولا ينتهى .. لأنه - أبدًا - ممتد مع الخالق الأزلى الذى لا ينتهى ولا يفنى » !

* * *

(نظـــــرة عشـــــق)

* **ويقـول « الرافـعى » :**

- إن شيئين هما أروع ما نعرف وما نجهل : أحدهما ذلك المجهول الأعظم المتبسط وراء العقل يترامى قفْراً فى قَفر ، إلى ما لا نعقل من أسرار اللانهاية ، والثانى ذلك المعروف الأعظم المختبىء وراء القلب يتعقد صفة فى صفة إلى ما لا ندرك من أسرار النفس .

وفى ذلك التعقيد . . تلتمس الروح وضوح الألوهية ، ونعيم الجنة الخالد ، وفى هذا التعقيد النفسى يلتمسون وضوح الحب ، ونعيم الحبيب للمعشوق .

كل ما فى الكون هو من الضرورات لوجود الكون ؛ لأنه ممتلىء لا ينقص ، وما كان ضرورياً فهو مذهب واحد ليس فيه ما هو أكبر ضرورة ولا ما هو أصغر ، الكبير الكبير ، كالصغير الصغير ، ولو كان مكاناً ليس فيه نَفَسٌ واحد من الهواء لَقَتَل الحىَّ كما يقتله انتزاع كُرة الجو كلها من مخارق هذا الفضاء [1] .

وكل ما فى الحبيب هو من ضرورات عشقه إن صح العشق ، فكأنما هو يتجه أيضاً مع الكون إلى اللانهاية ؛ بل كأن كل حبيب فى خيال محبه إنما هو الوسيلة التى استطاع الكون أن يُعبِّر بها عن جماله لإنسان فى إنسان ببلاغة تختلف مع الأذواق ، كما تختلف البلاغة الإنسانية ، هذه يقولون فى تعريفها إنها مطابَقَة الكلام لمقتضى الحال ، وتلك يقول الكون نفسه فى تعريفها إنها مطابَقَة الشكل الجميل لمقتضى الإحساس .

---

(١) أى من حيث ينخرق الفضاء ، أى منه كله .

يضيق هذا الكون ، ثم يضيق حتى كأنما يجتمع عند العاشق وحده ، وبهذا لا تجد حبيباً إلا بلغ عند محبه ما تناهى إليه الحسن فى أرضه ، فى المعشوق وسمائه ، حتى لهو الشمس والقمر وكل ما جرت فيه أشعتهما من ذَهَب الجمال وفضّته ، وبذلك جَمّعت اللغات أحسن ما فى الكون وأجْرَتْه فَى تشبيهات الحبيب وألّفت من ألفاظه لغة الحب .

فهل يكون فى العقل من هذا ، ومن ذلك إلا أن الكون قد تناول النفْس العاشقة حين ضاق ثم ضاق ، فوسّعها ثم وسّعها حتى أفاضها من معانى الحبيب على المعانى الأزلية ، وجعل عهدها بالحب أياماً فى لذتها أو نكَدها كأنها ليست من أيام هذه الدنيا ؟

لَعَمْرى لو أمكن أن تأتى إلى الأرض رسالة من إحدى الحُور العين فى السماء ، لَمَا أمكن أن يتلقاها إلا عاشق على شفتىْ حبيبته أو خَدّها ، ولو بعثت الجحيم برسالة من زفيرها وشهيقها ، لَمَا وقعت إلا فى صدر عاشق يتلهف من هجران حبيبته أو صدّها !

***

فى الكون حياة أبدية فياضة لا تفتأ تعمل بالسلب والإيجاب ، كأن هذا الكون العظيم يتحول فى كل لحظة ليخلق ، فهو فى كل لحظة صورة جديدة ، وما كان فيه سلباً فهو الذى يجذب فى مذاهبه وتصاريفه ، وهو مَبعث القوة المبدعة ، وهو الذى يحقق أشكال الحكْمة فى جلالها .

وفى المعشوق حياة فياضة تُخَيِّل لمحبه أبدية وهى إلى وقت ، ولا تزال كذلك تعمل فى خيال مُحبه بالَسلب والإيجاب ، وهى السرُّ فى بقاء الحبيب طريفاً جديداً ما بَقى حُبه ، كأنما يتحول فى كل يوم ليُخلق ، فهو فى كل يوم صورة غير صورة أمس ، وهو دائماً معشوق الساعة وقد خَلَدَت عليه النظرة الأولى ، وكل ما تكرر منه من ضحكة أو كلمة ، أو نظرة ، أو ما إليها ، جاء لوقته كأن فيه حياة ، وكأنه مولود

لا مصنوع ، ولدته رغبتك ولم يصنعه هو ؛ فأنت تتلقاه كما يتلقى الأب أو الأم أولاده وقِطَع كبده : لا يزال عليهم كل يوم طابع قلبه .

وما كان في الحبيب سلباً .. فهو الذى يفتنُ فى دلاله وامتناعه ، وهو مبعث سحر الجاذبية ، وهو الذى يحقق من جماله الخيالى أشكالاً تتلهف عليها الروح لهفة الظمآن فى القفر على تموج السراب وصَبغة الرمل الجاف الملتهب بلون الماء البارد الصافى .

يمنعك الحبيب ما تشتهى منه ، فإذا هو قد منحك الخيال ، ولذته وسحره ، وإذا هو قد جعلك بالسلب كالمرآة لا تتلقى إلا لتعكس ، فأنت للحب والشوق ؛ ولكنك أيضاً للتفسير والتعبير ، وتجسد فى قلبك من أثر ذلك النقص تكامل الحياة ، ويصبح عندك فهم الجمال جزءا من الخُلُق والفكر ، كما هو فيك جزء من الحاسة والعاطفة ، فإذا نار قلبك تحرق المعانى ، وإذا كل شيء ينفجر لك عن ضوء أو شعلة ، ويحقق لك الحُب **(أن الله نورُ السماوات والأرض)** .

***

إذا لم يكن ما نَعُدُّه بغيضاً شيئاً مفصولاً عن الكون ، فهو - ولا ريب من ضروراته ، وهو بهذا من أجمل جماله فى معنى التكوين والإبداع ، غير أننا لا ننظر منه إلى هذا المعنى ، ولا نعتبر صلته بالوجود ؛ بل ننظر إليه بمعنى التكوين الذى فينا ، ونعتبر صلته بنا ؛ فلا يكون من هذا إلا أنه قُبحنا وسمج من بُحنا لا من قُبحه .

فالكون بما فيه من أثَر الخالق هو اتّساقٌ واحد منسجم لا شذوذ فيه ولا تنافر ولا قبح ولا بغض ؛ ولكننا نحن بما فينا من قوة الخلق ؛ نتمرد على الانسجام والاتساق ، إذ لا نملك من ضعفنا إلا خلق هذا التمرد ، وتتطلع شهواتنا ورغباتنا إلى شيء ما . . فيكون جميلاً وحبيباً ، وتنصرف عن شيء ما . . فيكون قبيحاً وبغيضاً .

ومن هذا فليس فى الكون إلا الحب والجمال والخير إذا سقطت الشهوات ، إذ كل شىء حينئذ يكون مقصوراً على حقيقته التى لم تفسدها بتغييرها ، ولأن قبح شىء من الأشياء ، إنما هو صورة انحرافنا عن إدراك حقيقته ، وجهلنا بناحية اندماجه فى قانون الاتساق الإلهى .

أفليس بذلك يكون المعشوق الجميل كأنه تهذيب علمى لروح من يهواه ، وتدريب له على الاندماج بفكره وعاطفته فى جمال الخليقة ؟

أليس بذلك يكون المعشوق الجميل هو الوسيلة التى يتعلم بها العاشق علِمَ قلبه ، أى فن الارتفاع بالأشياء الجميلة على سذاجتها الفطرية ، وإكسابها فى روحه الإشراق الإلهى ؟

أليس بذلك يعمل العاشق فى جَمال العالَم ، ويكون الجزء الإلهى فيه هو الذى تحرك للحب لينكشف حبيبه بمعانيه السامية ، ويَشهد جمال ذاته فى الصورة الجميلة التى يهواها ، حتى ليستطيع أن يقول لحبيبه : يا نفسى ويا روحى ! وهو يُحس أنه على الحقيقة نفْسُه وروحُه ، إذ يرى أنه متعلق به تعلق الطفل بروحه الكبيرة فى أمه وأبيه ؟

وهل غير الحب علَّم الإنسان كيف ينادى روحه ونفسه فى غيره ؟

***

٣ - العشق عند « مصطفى صادق الرافعى » (١٨٨٠ - ١٩٣٧م) :

(حُـــبّ العــاشـــقين)

حُب العاشقين كالثمرة . . ما أسرع ما تنبت ، وما أسرع ما تنضج ، وما أسرع ما تُقطَف . . ولكنها تنسى الشفاه التى تذوقها ذلك التاريخ الطويل من عمل الأرض والشمس والماء فى الشجرة القائمة . . لا لذة فى الشجرة ؛ ولكنها هى الباقية ، وهى المنتجة . . ولا بقاء للثمرة ؛ ولكنها - على ذلك - هى الحلوة ، وهى اللذيذة ، وهى المنفردة باسمها .

وهكذا الرجل . . أغواه الشيطان فى السماء بثمرة ، فنسى اللّه حيناً ، ويغويه الحُب فى الأرض بثمرة أخرى ، فينسى معها الأم أحياناً .

***

(نِصْفُ الجنون فى العاشـــق) !

* نِصْفُ الجنون فى العاشق الذى يتجرد من الناس إلا من أحب ، ونصفه فى المعتوه الذى يتجرد من الزمن إلا الحاضر !

إنه ليس للمجنون عند نفسه ماضٍ ولا مستقبل ، إذ لا يأمل هذا ، ولا يذكر ذاك ، وكل سعادة نفسه فى هذا النسيان الذى طمس عليها ، وتركها كأنما تعيش فى غير عمرها . . بل فى كل أعمار الإنسانية . . بل بغير عُمْر .

وكذلك ليس للعاشق مع الحبيب شخص آخر ممن مضى ، وممن يأتى ، ما دام الحب قائماً ، فالحبيب هو الحبيب ، وكل الناس بعده أدوات وشخص واحد ، هو الألف واللام والحاء والباء ، والناس جميعاً نقطة صغيرة ملقاة تحت الباء فقط .

***

(حُبّ الفتى .. وحُبّ الرجل الهَرِم)

* يحب الفتى الناشيء حباً طاهراً يستوجف قلبه (يذهب به) ، فيقول أكثر الناس : أحب قبل زمن الحب .

ويعشق الرجل الهَرِم عشقاً فاسداً يستوقد ضلوعه ، فلا يرضى أن يقول مرة واحدة ، ولا أن يقول عنه أحد إنه أحب بعد زمن الحب ؛ مع أن الفتى رجل يُبنَى ، والهَرِمْ رجل يُهدَم ؟

***

(الأجمل .. والأكمل لدى العاشق)

* . . هل على الحُب خيار ؟ . . أم هو الجمال الأزلى . . يَستعلنُ لكل إنسان بالوسيلة التى توافق مزاجه ، وتلائم تركيب نفسه على قدر ما يلائمه ، وعلى أحسن ما يلائمه . . فيأتى الحب متخذاً من الشكل المحبوب وسيلته . . فلا يكون أكمل ولا أجمل عند كل عاشق من معشوقه . . إذ هو ليس إلا الصورة التى تتراءى فيها خصائص الجمال العُلْوى للخصائص التى فى روح العاشق وطباعه ، فتتصل بها من الجهة التى تنفذ منها إلى خالصة قلبه ، وداخلة روحه .

***

(وصـــال العشـــــق)

* من حياة الأطفال ، المنحصرة فى معانى أنفسهم ، نُدرك سر الحب وسر السعادة . . فإن كل لذة الحب ، وإن أروع ما فى سحره ، أنه لا يدعنا نحيا فيما حولنا من العالم ؛ بل فى شخص جميل ليس فيه إلا معانى أنفسنا الجميلة وحدها . .

ومن ثَمَّ يصلُنا العشق من جمال الحبيب بجمال الكون ، وينشىء لنا فى هذا العصر الإنسانى المحدود - ساعات إلهية خالدة . . تُشْعِر المحب أن فى نفسه القوة المالئة هذا الكون على سعته ، فتمر النفس - حينئذ - فى سُبحات اللذة الروحية من الجميل ، إلى الجمال ، إلى الطبيعة ، إلى الله جل جلاله .

* * *

(كيف يكون الحب عشقاً ؟)

* لن يكون الحب عشقاً ، ما لم يرتفع بالنفْس عن ذاتها ، ولا تسمو النفس عن ذاتها ، ما لم يَعْلُ نظرها إلى الأشياء . . والنظر الإنسانى لا يعلو بشىء إلا إذا ألبسه معناه الإلهى !! .

* * *

(الحب والنفس العاشقة)

* لا يكون الشعور بالحب نارياً ما لم يكن الحب نفسه مَزْجاً للنفس العاشقة بالكهربائية السارية فى الكون ، المالئة لنواحيه وأطرافه النابضة بكل ما فيه .

* الوجه الذى نعشقه . . هو من كل ما خَلَق الله . . الوجه الموسيقىُّ الذى لا ينسجم غيره ، ولا يتطابق مع فن عاشقه . . فإن أطرب ، أو أشجى ، فبلذة أشجى ، وبلذة أطرب .

* * *

(العشق : رقـة .. ووحشية)

* العاشق الرقيق على فرط رقته ، هو لفرط رقته وحش فى عاطفة الحب . . ما منه فكر لو فُتش إلا فُتش عن معنى يفترس . . إذ يشعر بالحياة - فى نفسه - لا غذاء لها إلا بمعانى حبيبته ، فيأكلها حتى بالنظر ، ويفترسها حتى بالخاطر ! .

* * *

(العشق : شـقاء .. ولـذة)

* فى الحب : درجة من درجات الملائكة . . يرتفع إليها من قَدَرَ أن ينسى من حبيبه المادة الإنسانية ، وهى مالئة عينيه وحواسه . . آه . . ما أشق أن يتحول العاشق - فى حبه - إلى شريعة . . ولكن ما ألذ أن يتحول .

* * *

(الجمـال المعشـوق)

* يريد الجمال المعشوق أن يثبت فينا ، فيغيب عنا ، إذ كان بذله يُفنى منه على قدر ما يعطى . . فإذا هو امتنع وعزّ مناله ، كان جمالاً فى نفسه بمعانيه ، وجمالاً فينا بالمعانى التى هى فينا ، وكان له من اجتماع الحالتين حالة جمال ثالث ، هى فى ألم الرغبة المستعرة ، أو ألم الغيظ المجنون .

ومتى خلق لنا الجمال من قصر الزمن طول الزمن ، ومن المتاع بالحسن العذاب بتمنيه ، ومن الحبيبة الراضية حبيبة هاجرة ، ومن الحاضر غائبة . . فقد ارتفع عن إنسانيتنا ، وجاءنا من ناحية سِرّه الإلهى .

* * *

(أنـــا عاشـــــق)

* أنا عاشق أضم الطبيعة فى مهجتى مصغرة ، فأنا الأكبر . . إن هذا لجنون ؛ ولكنه عقل .

وأنا عاشق أفسّر الطبيعة فى حبيبتى الجميلة ، فى الأجمل . . إن هذا لعقل ؛ ولكنه جنون ! .

* * *

(قلب المـرأة العاشـقة)

* فى الحب : يتكلم قلب المرأة العاشقة بمنطق فصيح من أعمالها . . فأعمالها عندها على طريق اللغة والتعبير ، قبل أن تكون لعلّة أخرى من العلل . . فإذا أنت حملتها على ظاهرها ، وكنت المقصود بها ، فقد جزت بها عن طريقها ، وأخطأت سحرها وجمالها . . بل تكون قد أهنتها ، وابتذلت المعنى السامى المخبوء لك فيها ، ليكون لك وحدك .

* * *

(عذاب العاشق بالرحمـة)

* يا للرحمة من طيف يعذب العاشق بالرحمة . . إذ ينتقل الحبيب كله إلا الحبيب نفسه . . ويحقق للمحب أمانيه إلا بهذه الأمانى ، ويخيم على ظلمة الصدّ بألوان من نهار يموت قبل النهار . . وفى عالم معذب من الهواجس والخيالات العاشقة المستلبة إرادتها ، ينصب عالمُ نعيمٍ من الهواجس والخيالات المعشوقة مستلب الإرادة أيضاً . . فكأنها سخرية النفس من جنون صاحبها . . يا للرحمة .

* * *

(العشق بين التألـه .. والتولـه)

* ما أقرب الحب من العبادة ، ما دام هـذا الحب هو تجـلّى نفس فى نفس ، وما أشبهه بدين يعبد فيه الجسم الجسم . . فالمعشوق حالة نفسية متألهة معبودة ، والعاشق حالة أخرى متولهة عابرة .

* * *

(عشـق أعظم العلمـاء)

* لو عشق أعظم علماء الدنيا ، لأيقن أن حيرة عقله فى أسرار الكون لها شكل أدق وأغمض مع أسرار الحب ، ولعرف أن فى أعماق النفس الإنسانية مثل ما فى أعماق الوجـود : مسائل لا حـل لها . . ألا يخرج من ذلك أن كل محب يقابل فى الطبيعة بقلبه - أو إحساسه - أعظم العلماء بعقله وآلاته .

* * *

(العشق .. وصاحبه)

* حين يجدُّ العشق بصاحبه ، يحبس عليه الزمن كله فى نقطة همّ ثابتة لاتتحرك . . فتشتبه عليه الأيام حتى لا يشعر أنه يقضى يومين ، أحدهما يختلف عن الآخر .

* * *

(الحب العاشق والجمال المعشوق)

* **أصل الحب العاشق** : اتساع الرغبات المنجذبة ، وخروجها عن حـدها . . **وأصل الجمال المعشوق** : اتساع الأسباب الجاذبة ، وخروجها عن حـدها . . كذلك فمن ثَمَّة لا أناة فى الحب، ولا عقل ولا استقرار ، إذ هو اجتماع فوضيين ثائرتين على نفسٍ ضعيفة .

* * *

(العاشق فى البداية .. والنهاية) !

* الطفل يرى فى أمه البداية والنهاية جميعاً ؛ لأن طفولته ستار بينه وبين ما وراءها ، وكذلك العاشق : يرى فى حبيبته بداية ونهاية معاً ، لأن حبه ستار بينه وبين ما عداه ، يحصُره بين أول وآخر فى امرأة واحدة ؛ أفلا يكفى هذا دليلاً على بلاهة العشاق وغرارتهم ، وأن الحب كالانتكاس إلى الطفولة فى جبهة واحدة من جهات النفس ؟

وترى الصغير إذا فارقته أمه نظر فيما حوله ليستشف ما انفصل من آثارها المحبوبة على كل الأشياء التى فيها حنينُ نفْسه ، وكذلك يفعل المحب فى كل ما مسته حبيبته ، حتى كل شىء عليه لمحة منها ، حتى ليرى بعض الأشياء يكاد يبتسم له ، وبعضها يرنو إليه ، وبعضها يكاد يتيه ويتدلل ويصد .

وحول الحبيبة ، تتفق لعاشقها كل عناصر الحياة المتناقضة ، إذا شاءت ، هى ، ومنها هى أيضاً تختلف هذه العناصر عليه إذا شاءت ، كأنها (أى الحبيبة) حياة لحياته ، لا مقصرة له عنها ، وكذلك أمر الطفل من أمه ووهمُه فيها .

***

(حـال العشـاق)[1]

دنوتُ من مواطن العشق والعشاق إذا فيهم المُقْعد ، والزَّمِن ، والضرير ، والمجذوم ، والأجذم ، والأبرص ، والدميم ، والمشوه ، والهَرِم ، والموهون ، وقانص اللذات ، وطالب الدنيا ، والمبذِّر ، والشحيح ، والجبلن ، والنذل والدَّجال ، واللص ، والأحمق ، والغر ، والغبي ، والجاهل ، وكل وغد لئيم أبعد الناس من ذوى الإحسان والحسن ، وجمال المنظر ، والمخبر .

فلما وجدت كل هؤلاء ينزلون ساحة الحب ، مَرَّ بخاطرى أنه قد يجوز لى أن أحل ذلك الجناب ، وألج ذياك الباب ، مختفياً فى غمار تلك الجموع المزدحمة ، والوفود المحتشدة .

ثم صممت ، فمضيت . . وما بلغت الباب حتى رفضت ورددت ، حينئذ علمت أن رفضى ورجعى ليس لأنى دون القوم بل لأنى فوقهم .

ولا أنكر أنى أسفت (وإن كان أسفى هذا جديراً أن يعد عاراً وسوءة) لحرمانى ورفضى عندما رأيت أن أسفل النوع ، وأخس الناس ، والغوغاء ، والبغاث ، والحثالة ، والنفاية . . كانوا يتفوقون علىَّ ويلجُّون باب ساحة الحب دونى ! .

عند ذلك خُيِّل إليَّ أنى جنس وحدى ، وأنى « دولة » بذاتى ، مخالف لهذا العالم السافل .

وصرتُ أفخر بالذى لقيت منه الإهانة ، وأحس اللذة فى الألم ، وأذوق الشهد فى العلقم ، وعلمت أن لى مجالاً آخر ، وأن حظى ومغنمى فى غير تلك السبيل .

---

(١) محمد بن محمد بن عبد الوهاب السباعى (١٢٩٨ - ١٣٥٠هـ / ١٨٨١ - ١٩٣١م) .

ومصداق ذلك أن خير ما كتبتُ ، وأجود ما ألّفتُ ، والشيء الذى أنا به جدير أن أزهى به وأفخر .. هو مما لا تقرؤه آنسة ، ولن تستطيع فهمه امرأة .

ولماذا يسوءنى أن أروح صفر اليد من النساء ، وليس عندى مصايدهن ، ومالى أزرع الشوك وأنتظر العنب ، وأبذر القتاد وأرجو العناب .

لقد محت الفلسفة من ذهنى الحب ، وأباد الفكر الهوى ، وجبهتى المكفهرة هذه المقبلة على الحكمة والحق . إنما هى الصخرة الصماء التى تتحطم عليها سفينة الغرام فى ملتطم أمواج الفكر ، وطامى عباب الرأى والذكرى .

ومع ذلك فإنى لآسف على حرمانى ملاذ الهوى ، ومطايب تلكم المواقف !

وتذهب نفسى حسرات وأنفاسى زفرات ، فَدَهْرِى مأتم ، وعُمرى مناحة ، وقلبى فريسة ، وجفنى لطول النهطال غمامةَ ، وقلبى لترجيع البكاء حمامة ، نهارى من أسوداد الحداد دُجَى ، وليلى من اضطرام اللوعة ضُحَى .

وكذلك قضيت أربعين من عمرى أتلهف على نعيم (العشق) ولا أعطاه ، وأشتاق طيب وصال ولا أملاه ، وأتمنى وجه حبيب ولا أراه .

ولكن ما لى أشكو هذه الأربعين وأتهمها بالخلو من نعمة الجمال والحب إذا كان هذا الوجه الحسن الجميل الذى يطالع خيالى على بعد ، صاحبه يعكس أضواءه على ظلمة تلك الأربعين ، حتى يرى وجه ماضى ، وهو من الفرح الجديد ، والحزن القديم مبتسماً فى دموعه :

ثغور ابتسام فى ثغور مدامع   شبيهان لا يمتاز ذو السبق منهما

إنى من ذكـرى « ليـلاى » فى لذة لا توصف ، وطرب لا يكيف ، وكـأنمـا يخـفـق حـوالى نــور أرجـوانى ، وضـيـاء وردى ، وكـأنمـا يهب فى الحجرة صبا الغرام ، ونسيم الحب .

وكـأنما إذا نظرت إلى صـورة الحـبـيـبـة الماثلة أمـامى على الحـائط ، توامضت على الرقعة أشعة ذهبية كعهدى بها يوم تسلمتها من المصور .

وكأنما تنبت فى ثَرى نفْسي أزهار الأمل والسرور ، كعهدى بها أول ما نبتت ، فأذكر العصور الأُولْ وتكُرّ الأويقات السالفة راجعة ، وتزدحم على دارى السنون الخالية وتقـرع الباب ثُم تدخل علىَّ ، وكـأنى لا أزال فى شرخ الشباب وميعة الصبا ، وكأن الروض قد عاود زخرفه ، وأخذت الأرض زينتهـا ، وعاد فى السماء قُزح ، وكـأنى أبصر بالعين أذيال أثواب السنين الماضيـة ، وكـأنى ألمس باليد حـواشى أبراد الأزمن الخـاليـة ، ولم يذهب سُدًى ولا مضى عبثاً كل ما أحسه قلبى وأجراه خاطرى .

وقـد أقف الآن على قـبر الحب ، فـأنظم فى ذكـرى الغـرام نشيـداً ، وأنضد فى تجديد عهد الهوى قصيداً .

ويأيتـهـا الـغـانيـة إن كـان مـا أبديتـه لى من شـواهد الحب خداعـاً . . فاخدعينى به ما حييت ، ومنينى ما عشت أضاليل الأمانى :

عللينـــــى بموعـــــد وأمطـــــلى ما حييــت بــه

دعـينى أعش فى ظل وصل السـجـسج ، وأكـتـحـل بسـنا جـبين الوضاح ، وببروق ثغرك اللماح .

واقتلينى باللثمات ، وأحيينى بالبسمات، واسحرينى بالنظرات .

ولكن .. لا يزال هواك عابثاً بقلبى ، لاعباً بلُبّى ، هازئاً بحالى ، ساخراً من آمالى .

فالخديعة فى الهوى ، خير من الفطنة فى النهى .

* * *

١ - العشق .. كما يراه العقاد :[١]

(العشـــق : نـــــزوة)

لا أرى العشق إلا نزوة من نزوات الشـــهوة البهيميــة يخصصهــا فى الإنسـان بامـرأة - دون ســواها - تفـاوت الملامــح فى إناثـه ، وتَعُـمّ فى البهائم لأن تماثل أناثها فى الخِلْقة لا يدع ما يحتم الانجذاب إلى أنثى يعنيها من بقية الإناث .

والحب الشريف ، والحب الخسيس ، معدنهما واحد ، وغرضهما واحد ، وطبيعتهما واحدة .

والذين يتوهمون أنهم إنما يعشقـون لمحض التفـرج على الجمـال الصورى يخدعون أنفسم ، فإن من التماثيل المنحوتة ما هو أجمل صورة من أجمـل امرأة فى العالـم ، ومع هـذا فنحن لا نشغف به ، ولا نتدل فى حبـه .

وغاية الفرق بين الحُبين : الشريف الخسيس .. أن الأول : حب العقلاء الذين يسوءّهم تضحيـة أحبائهم لشهواتهم .. وأن الثانى : حب الحمقى الذين لا يفكرون فى غير قضاء الشهوة .

وهو - أى العشـق - أحـد الشـهوات ؛ لأنه الشـهوة الوحيدة التى لا تتم ألا بتـراضى شـخصين ، يحتـاج كل منهـمـا إلى الشمـائل ، والأوصاف التى يصبو إليها الآخر ، ليقترب كل منهما إلى صاحبه من بين ألوف الرجال والنساء .

---

(١) عباس محمود العقاد (١٨٨٩ - ١٩٦٤م) .

فالخيبة في العشق - اليأس من الذات التي لم يستحوذ على إعجابنا سواها من كل هذا الملأ ، والتي لا يهمنا من كل هذا الملأ أن يعجب بنا سواها - هذه الخيبة ، أو هذا اليأس ليس معناه فقط عدم التمكن من قضاء شهوة ؛ بل معناه أيضاً . . أن العاشق ناقص فيما يسترعي إليه قلب المعشوق الوحيد الذي لا يبالي إن كان كاملاً من هذه الوجهة في نظر غيره ، أي ناقص فيما هو به رجل يستحق إعجاب المرأة التي وقع عليها اختيار من النساء ، أو فيما هي به امرأة تستحق إعجاب الرجل الذي وقع عليه اختيارها من الرجال .

وبغض النظر في جميع ذلك عن فوارق الدرجة والمقام .. فإن هذه مميزات تميز رجلاً على رجل ، أو امرأة على امرأة .. ولكنها لا تميز ذكراً على ذكر ، أو أنثى على أنثى .

* * *

٢ - العشق .. كما يراه العقاد :

(العشـــق .. والإرادة)

تعطيل الإرادة أصيل فى الهوى كله ، ولا سيما الهوى الذى نسميه بالعشق ، أو نسميه بالغرام .

• لأن المرء يرتبط فيه بإرادة شخص آخر ، فهو مقيد بهذا الارتباط الذى لا تتفق فيه الإرادتان فى جميع الأحيان .

ثم يتقيد الشخصان معاً بإرادة النوع كله ، أو بالإرادة القاهرة التى تتمثل فى الغريزة النوعية ، وتتغلب - كثيراً - على إرادة العاشقين ، وإن اتفقا على حالة من الحالات .

ثم يتقيدان بالعُرف الذى يفرضه المجتمع ، وتفرضه الآداب والأخلاق فوق ما تفرضه الطبيعة من طريق الغريزة النوعية .

ثم يتقيدان بظروف المعيشة وأحوال الدنيا التى تتاح على وفق الهوى . . أو لا تتاح .

فإذا تميز العشق بين سائر العلاقات الإنسانية ، بخاصة من الخواص الظاهرة .. فأكبر ما يتميز به هذا التقييد الشديد لإرادة العاشق من جملة نواحيـــه .

وقد يبلغ به هذا التقييد لإرادته . . أن يحول بينه وبين فهم إرادته . . فلا يعلم ماذا يريد . . فضلاً عن أن يعلمه ، ويعجز عنه .

فإذا به قد انقسم على نفسه ، كما ينقسم المعسكر الواحد إلى ضدين متحاربين ، ولا غنيمة لأحد منهما فى الانتصار ، إذ هو انتصار لا يخلو - فى الحالتين - من خسارة . .

وينتهى به الأمر إلى البقاء على حاله عجزاً عن تغييره ، لا سروراً به ، ولا رغبة فيه .

فهو لا يتعلق بمعشوقه لأنه راضٍ عن هذه العلاقة .. يتلذذها ، ويشتهيها ، ويتذوق النعمة والهناءة فيها .

ولكنه يتعلق بمعشوقه لأنه عاجز عن فراقه .. مقيد بضروب من العادات ، والوساوس ، لا حيلة له فيها ، ولا قوة له عليها .

ومثله فى ذلك . . مثل المدمن الذى يتعاطى السموم ، ولا يجهل بلواها . . ولكنه يقلع عنها ، فلا يقر له قرار . . فيمضى فيها وهو كاره لها ، يبحث ما استطاع عن سبيل الحياة .

***

جذور العشق

* **العشق : أصيل فى طبيعة الإنسان ، إذا نحن رددناه إلى الغريزة النوعية . . بل هو أصيل فى طبائع بعض الأحياء من الطير والوحش ، كما ظهر من تلازم بعض الأزواج ، واقتصار بعض الذكور على بعض الأناث ، بغير تبديل إلى أمدٍ طويل .**

***

٣ - العشق .. كما يراه العقاد :

(العشق .. وشِعْر الغزل)

من الأوهام التى شاعت بين قراء الشعر عندنا وبعض قرائه فى الأمم الأخرى ، أن الرقة هى الصفة الأولى للشِّعْر كله ، أو هى ميزته على النثر والكتابة ، والمباحث العقلية البحتة .

وأن شعر الغزل على الخصوص ينبغى أن يكون مفرطاً فى رقته بعيداً عن الخشونة ، وعن كل ما يذكِّر السامع بالعنف والقوة ، فلا يُحسب من شعراء الغزل المُجيدين إلا من كان ظريف النسيب ، خافت الصوت والوجيب ، مكثراً من الشكاية والنحيب .

فإن بدرت منه كلمة جامحة ، وأفلتت من وَقْدة صدره نفثة لافحة ، فليس ذلك بغزل ، وليس الشاعر بمطبوع على العشق ، ولا بمدرب على « العواطف » ، ولكنه دخيل فى هذه الصناعة متكلف لها .

إن هذا الوهم لا يقف ضرره عند حد الخطأ فى فهم الشعر ، أو فى الحكم على مقاييس الآداب والفنون عامة ، ولا يدل على فساد ذوق ونقص فى ملكة التمييز بين صنوف الجمال فحسب ؛ ولكنه يدل قبل ذلك على مرض فى المزاج وضعف فى الأخلاق ، وسخف فى مدارك الفكر .

وإذا دل على هذه الخلال ، فقد دل على ما يلازمها من سقوط الهمم ، وخبث الطباع ، وأعراض التأخر ، والفتور فى الأمم ؛ لأن النفس التى تحس الحياة حق الإحساس ، وتجارى الطبيعة فى قوانينها ومقاصدها لا يمكن أن تجهل « العشق » هذا الجهل ، ولا تخطىء فى وصف التعبير عنه إلى هذا الحد ، ولا حظ فى الحياة لمن انقطعت بينه وبينها صلة الشعور الصحيح المستقيم .

ونعتقد أنه ليس أعون لنا على فهم طبيعة « العشق » الصادق من الالتفات إلى نقطة واحدة ، وهى علة استئثار الرجل بالغزل دون المرأة .

فلماذا انفرد الرجال بالغزل ، ولم تنفرد به النساء إن كان مصدره الرقة ، واللين ، والنعومة ، وكان براء من العنف والقسوة والخشونة ؟

ولماذا يباح للرجل أن يطلب المرأة ويحمد منه الإلحاح فى طلبها ، ولا يباح لها أن تطلبه .. ولا يحمد منها أن تستجيب لأول دعوة منه ؟

إن الرجل لا يستأثر بذلك عبثاً ؛ ولأنه أقوى عاطفة ، وأقدر على التغلب برغبته من المرأة ، ولهذ السبب استأثر فى أول الأمر بالزينة والحُلىّ[1] ، ثم شاركته المرأة فيها ، فانفرد دونها بالكشوط والندوب لأنهَا شارة الأيد والبسالة ، ولهذا أيضاً استأثر بالنداء على المرأة ، واستدعائها إليه بالغناء الصوتى أو الغناء المقسم بالحروف ، وهما أصل الغزل فى الأحياء جميعاً .

ولست أرى أن المرأة كانت تطرب حينئذ للأصوات من حيث هى جميلة وأجمل ؛ ولكنها كانت تسمع أكثر الأصوات تنوع نبرات ، وتفاوت مقامات ، فتجدها أكثرها انفعالاً ، وحرارة ، وأدلها على القوة والرجولة ، فتهيج فيها العاطفة العاطفة ، وتبعث الرغبة الرغبة .

وتنقاد للرجل الذى استطاع أن يزعج فيها رغبة « العشق » انقياد المجبر ، لا انقياد المنصت المميز بين توقيع حسن ، وتوقيع أحسن منه ؛ ولهذا كان الرجل هو البادىء بالصياح ، إذ كان هو الأقوى صدراً ، والأشد من ثَمَّ تأثيراً ، فإذا امتلأ صدره بالهواء الحار ، أزجى به صوتاً

---

(١) قال لورد افبرى فى كتابه نشأة المدنية : « للهمج شغف عظيم بالزينة ، وإنه ليندر بين قبائل من أوضع البشر من يتزين من النساء لأن الرجال يخصُّون بالزينة أنفسهم .

يردده الانفعال بين الارتفاع والهبوط ، والاستقامة والاهتزاز على الرغم من صاحبه ، فيكون الغناء فى أبسط حالاته ، ويغلظ لأجل ذلك صوت الرجل بعد البلوغ ، ولا يكاد صوت المرأة يتغير .

وقد تلمس (دارون)[1] علّة الطرب من ناحية الرقة والرخامة ، فعسر عليه الوصول إلى مصدرها وقال فى كتاب أصل الإنسان :

« لو سأل سائل ما يقال عن بعض الألحان والأوزان التى يرتاح إليها الإنسان ، وأنواع من الحيوان . لما كان فى وسعنا أن نُجيب عن ذلك إلا بجواب السؤال عن سبب ارتياحها إلى بعض المذوقات والمشمومات » .

***

وليس الأمر كذلك ؛ لأننا إذا تلمسنا علة الطرب أولاً من جهة التأثر بقوة الصوت . وجدنا الجواب على ذلك السؤال سهلاً قريباً ، وأمكننا أن نجيب من يسألنا :

لماذا يؤثر أعمق الأصوات ارتجافاً وتعويداً ، وأكثرها تنوعاً وتجويداً ؟

فنقول له : لأنها ترجمان العاطفة الشديدة ، والعاطفة من شأنها أن تبعث العاطفة .

ولا يزال الغناء كذلك حتى يتعلم الناس الكلام ، وينعقد الصوت ألفاظاً وحروفاً ، فيتدفق الغزل من النفْس المحتدمة تدفقاً قوياً عارماً .

ويكون أجهر الرجال رغبة أهيجهم لرغبة المرأة ، وأبلغهم إلى نفسها كلاماً ، وأغلبهم على طبعها سلطاناً .

ويكون الشاعر الأول فى عصور الفِطرة هو أعنف الرجال « عشقاً » ، وأضراهم هياماً ! .

***

---

(١) دارون ، تشارلس روبرت (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) عالِم طبيعى إنجليزى .

« فالعشق » فى طبيعته الأولى بعيد عن الرفق والسلاسة .. وإنما هو شواظ لاذع يلتف دخانه بناره ، ويتلهب شوقاً إلى وقوده ، فإن أصابه خمد وعاد الشاعر يترنم بهناءة نفسه ، ويغتبط بالراحة من سورة طبعة ، وإن لم يصب وقوداً .. كان نقمة لا تطاق .

وأى رقة فى قول المجنون :

كأن فؤادى فى مخالب طائر إذا ذكرت «ليلى» يشد به قبضا
كأن فجاج الأرض حلقة خاتم على فما تزداد طولاً ولا عرضا

إن قلب السامع لينقبض ، وإن صدره ليحرج لهذا الوصف .

ومع هذا . . أى شعر أبرع من هذا الشعر ، وأى شاعر أطبع و « أعشق » من المجنون ؟

وليس « العشق » الصادق ، حيث يشب أواره ، وتتأزم حلقاته ، بالعاطفة التى يود صاحبها دوامها ، ويستريح إلى مناجاتها ، كلا ، وإنما هو غمة مطبقة يود المبتلى بها لو تنقضى لساعتها ، ويقوم فى نفسه عراك لا تهدأ ثائرته ولا يهنأ بالغلبة فيه ؛ لأنه هو الغالب وهو المغلوب ، وكأنما ينزع نفسه من نفسه فيضيق ذرعاً ، ويغوث من كرب هذا النزاع ، نزاع الحيرة التى يقول فيها المجنون :

فوالله ما فى القُرب لى منك راحة ولا البُعد يسلينى ولا أنا صابر
ووالله ما أدرى بأية حيلة وأى مرام أو خطار أخاطر

وكان **كاتيولس** (1) الشاعر الرومانى يدعو الآلهة قائلاً :

« أيتها الآلهة .. إن كانت لك رحمة بالقلوب الصديعة المشفية ، فبحق براءتى عليك إلا ما نظرت إلى عذابى ، ورثيت لما بى ، ومسحت

---

(1) « جايس فاليروس كاتيولس » : شاعر لاتينى ولد فى فيرونا سنة ٨٤ قبل الميلاد ومات سنة ٥٤ وهو من أكبر شعراء « العشق » فى اللغة اللاتينية ، ومن أمثال « قيس » و « جميل » و « كثير » عندنا .

عنى هذا الوباء الماحق ، والبلاء اللاحق ، وهذه اللوعة التى تسربت رعدتها فى عروقى ، فنفست الهناء عن قلبى »

وهى رعدة « عروة بن حزام »[1] التى يقول فيها :

وإنى لتعـرونى لذكـراك رعـدة ... لهـا بيْن جلدى والعظام دبيب

ووهلة المجنون التى يصفها بقوله :

دعـا باسم ليلى غـيـرها فكأنما ... أطار بليلى طائراً كـان فى صـدرى

فإن طاوعته نفسه فى نزاعه ذاك ، وإلا حنق عليها ، وذهب به الحب إلى كره ذلك المخلوق المسلط عليه ، الذى حرمه نعمة الطمأنينة ، وجلب عليه هذا الشر ، وفرق بينه وبين نفسه ، فيحب ويكره فى آن ، وربما تمنى لحبيبه الموت لعل اليأس منه أن يشفيه كما قال « جناده »[2] العذرى :

من حـبـهـا أتمنى أن يلاقـينى ... من نحـو بلدتهـا ناعٍ فينعـاها
كـيـمـا أقـول فـراق لا لقـاء له ... وتضمر النفس بأساً ثم تسلاها
ولو تموت لراعـتـنى وقلت ألا ... يابؤس للموت ليت الموت أبقاها

وكـان « كاتيـولس » يقـول : « إنى لأكـره وأحب ، تسـألنى كـيف ذلك ؟ من يدرى ؛ ولكنى أحس بحقيقة هذا الأمر وشدة برحائه » .

وكذلك كان يقول المجنون :

فـيـارب إذ صيـرت ليلى هى المنى ... فـزنى بعـينيـهـا كـمـا زنتـهـا ليـا
وإلا فـبـغّضـهـا إلىّ وأهلهـا ... فـإنى بليلى قـد لقـيت الدواهيـا

وليس فى نعت الحب بالداهيـة شىء من الرقـة والدمـاثة ؛ ولكنهـا حقيقة اتفق عليها شاعران ليس بينهما جامعة من ذوق لغـة ؛ أو مشـرب

---

(١) عروة بن حزام (نحو ٣٠هـ) . .

(٢) « جناده » بن أمية بن مالك الأزدى الزهرانى » (٨٠هـ) .

قوم أو وحدة زمن ؛ ولكنهما اجتمعا على عاطفة إنسانية صادقة - بل اتفق عليها كل شاعر عالج من « العشق » ما عالجه هذان الشاعران .

وأحياناً يثوب « العاشق » إلى نفسه ، فيبدو له كأنه مختار فى شغفه وسلوته ، وكأن الأمر لا يعنى غيره ، فإن شاء سدر [1] فى الحب ، وإن شاء صدف [2] ، وإن شاء مضى مع قلبه ، وإن شاء وقف ، فلا ينشب أن يستيقن عجزه ، وقلة حيلته ، وأن الأمر فوق يده ووراء مشيئته ، وهذا الذى يصفه « جميل » [3] إذ يقول :

يقولون مسحور يُجَن بذكرها فأقسم ما بى من جنون ولا سحر

وما الجنون والسحر إلا ما به ، وإلا فهل «للعشق» وصف أصدق من أنه مزيج من جنون وسحر ؟ هل هو إلا جنون يصقل العقل ، ويهزأ بالحذر ، ويطير مع الأهواء ، فإن ثقلت عليه النهى أزاحها عن عاتقه ومضى لطيته ؟

ألا يعرف « العاشق » ما يوبقه ؛ ولكنه لا يحيد عنه ، ويبصر ما يشفيه، وهو يأبى أن يذوقه ؟

وهل « العشق » المبرح إلا أن يغطى على السمع والبصر ، وأن تنفث النفثة التى لا ينجح فيها طب وطبيب ولا نشرة عراف ، فإذا بالفريسة المغلولة مأخوذة بين يديه كما يؤخذ المسحور إلى حيث أراد الساحر ، وكما يثب الوسنان من وساده على غير هُدًى ، وهو المفيق الخادر والنائم الساهر ؟

ولا داعى للعجب من وجود عاطفة فى نفْس الإنسان تأسره هذا الأسْر المؤلم الشديد ، ولا من وقوع الإنسان فى أسر هذه العاطفة باختياره وأسفه عليها بعد زوال صرعتها ؟

---

(١) سدر : أى : تحير .

(٢) أعرض .

(٣) جميل بثينة ، أبو عمر جميل بن معمر العذرى (٨٢هـ) .

وانفثاء لوعتها ، ولا من حنينه إلى ما يعانيه من عشقها كما يقول « البحترى » [1] :

ووددتُ أنى ما قضيت لبانة   منكمٍ ولا أنى شفيت غليلى
وأعد برئى من هواك رزيئة   والبرءُ أكبر غاية المكبول

نقول لا داعى للعجب من ذلك ؛ لأن الغرض من « العشق » غير مقصور على لذة الفرد ومصلحته ؛ ولكنه غريزة يُراد بها بقاء النوع كله ، واتصال حبل الحياة جيلاً بعد جيل ، فلا عجب إذا صغرت حيلة الإنسان وعيت مداركه عن مناصبة هواه فيه ؛ لأن المدارك مدارك فرد واحد ، والهوى هوى نوع بأسْره .

***

ومن محاسن « جميل » وإخوانه من الشعراء الغزليين : أمانتهم فى الإعراب عن النفسى والبث بالعاطفة . أنظر إلى قوله :

أرى كل معشوقين غيرى وغيرها   يلذان فى الدنيا ويغتبطان
وأمشى وتمشى فى البلاد كأننا   أسيران للأعداء مرتهنان

فهكذا ظن « جميل » ، وهكذا يظن كل عاشق يسمع بلذة « العشق » ولا يرى أين هى ، فيحسب أنه هو الشقى وحده ، وأن « العشاق » كلهم سعداء .

والحقيقة أن « العشق » لا يخلو من الشقاء أبداً ، ولو خلا منه لكان أشبه باللهو الذى يتشاغل به البطالون والمُجّان كعشق « عمر ابن أبى ربيعة » [2] ، و « العباس بن الأحنف » [3] ، وأضرابهما من المخنثين « عشق » أملس ، وقشعريرة ناعمة حلوة .

---

(١) البحترى ، أبو عبادة (٨٢٠ - ٨٩٧م) .
(٢) عمر بن أبى ربيعة (٦٤٤ - ٧١١م) .
(٣) العباس بن الأحنف ، أبو الفضل (ت ٨٠٧) .

فأما ما يبلغ منه الصميم ، ويخترق الشغاف ، وتتقاتل فيه الأهواء ، وينتهب من النفس أخفى خفاياها ، وأعمق دفائنها ، فبعيد أن يكون لذيذاً بالمعنى المعروف من اللذة .

وما هو إلا أن تخبو في النفس تلك الشعلة ، وتترك فيها رمادها حتى يشعر « العاشق » ببرد الفراغ ، ويذوق لذة الاحتراق بعد شفاء الكي ، واندمال القرحة ، ويعلم حينئذ أن السعادة التي سمع بها هي تلك القوة التي كانت تصطرع للظهور ، وتتأجج للسطوع ، وأن الإنسان يسعد بقدر ما تأخذ نزعاته وعواطفه من مجراها ، وتنطلق في مداها ، ولو كان في ذلك هلاكه . . وأنه خير له أن تكون هي قبره من أن يكون هو قبرها ، فيطرح نفسه مرة أخرى بين جناحي « العشق » الذي كان يجاذب ما يجاذب للإفلات من أوهامه ، ويود لو أُتيح له أن يستعيد تلك الغرارة التي استقبل بها « العشق » للمرة الأولى .

وهذا لون من الجنون ؛ ولكنه جنون ليس لإنسان أن يفخر بسلامته منه ، أو تغلبه عليه ؛ لأن التغلب عليه قد يدل على ضعف الطبع لا على قوة العقل ، ولا يصعب على أضعف الناس عقلاً أن يكبح هذه العاطفة إذا كان طبعه أضعف من عقله .

وليس مرادنا بأن «العشق» غريزة نوعية .. إنه محصور في معنى معين، ومحبوس في شعور واحد، إذ لا يخفى أن الغرائز النوعية متداخلة متوشجة، و « العشق » منها ، علي وجه التخصيص ، يدخل في كل ما ليس بأناني صِرْف من الطباع والأخلاق .

ولذا . . سادت الأنانية على الطفولة والشيخوخة لأنهما خاليتان منه ، وكانت الشبيبة وهي سن « العشق » سن الغيرية والإيثار والمفاداة .

فليس تأثير « العشق » مما يقف عند الغرض الأول منه ، ولاهو بمقصور على العلاقة النسلية بين الرجل والمرأة ؛ ولكنه يمتد إلى كل غريزة . . سواء أكان لها ارتباط بالشوق الجنسى ، أم لم يكن .

وربما ملك النفس وتمكن منها ، ولم يبلغ من تأثيره النوعى عليها إلا أن يذكّى فيها الغرائز الغيرية التى تقوم عليها علاقات المجتمع ، وأن ينمى الأذواق النوعية الأخرى التى تترجم عنها الفنون الجميلة من شعْرِ ، وتصوير ، وغناء .

ولذا كان أهل هذه الفنون ممن لا يستغنون عن « العشق » ؛ لأن موت عاطفته فى نفوسهم يميت أذواقهم الفنية .

وقد كان الفرسان – فى القرون الوسطى – لا ينون بين حب وحرب ، يورى فيهم الحب نار الشجاعة ، وتشعل الشجاعة فيهم قبس الحب ، ويستحون أن يكون أحدهم محباً ، ثم لا يكون بطلاً مغواراً ينضح عن ملته ومليكه ، لما بين الحب وحماية القبيلة ، أو الأمة من العلاقة الخفية .

وكان العرب لا يشهدون قتالاً ، أو ييممون بلداً إلا ذكروا ذلك لصواحبهم فى شعرهم ، واستلهموا به قصائدهم وافتخروا به فى غَزَلهم ونسيبهم ، كأنما هُمْ لم يقاتلوا ، ولم يرحلوا إلا لأجلهن ، وابتغاء مرضاتهن .

وما جعل للحب هذا السبق على العواطف الفرعية ، ولا صيره حافزاً لها يثيرها كلما ثار .. إلا كونه أصلها طرا ، فهو بلا شك أول غريزة دعت إنساناً إلى إنسان غيره .

هذه هى العاطفة التى ردها أرقاء الرقّة إلى ذلك الغَزَل المرذول الذى نقرأه للمتاخرين من شعراء الأندلس والعباسيين ! .

* * *

(الزواج .. بعـد العشـــق)(*)

*** يقول « د . زكي مبارك » (١٨٩١ - ١٩٥٢م) :**

- فى أحوال كثيرة ينتهى الزواج بعد « العشق » إلى الانفصال ثُم إلى العداء ، بحيث لا يحب أحد الزوجين المنفصلين أن يسمع خبراً عن صاحبه فى أى معرض من معارض الحديث .

فما تعليل هذه الظاهرة وهى من الغرابة بمكان ؟

كـان المنتظر أن يكون الزواج المنبعث عن « العـشق » أقـوى وأمتن وأبقى من سائر أنواع الزواج ؛ ولكن النتيجة تخالف ما انتظرناه ، وتشهد بأن « العـشـق » يكون أحيـاناً من أسـباب الطلاق . . فـمـا تعليل هذه الظاهرة ، وقد قلت إنها من الغرابة بمكان ؟

يجب أولاً أن نعرف موجبات « العشق » ، لنري كيف يمكن أن يصبح من منغصات الزواج ، فى أكثر الأحايين ، فما تلك الموجبات ؟

يخطىء من يقول : إن « العـشق » اتصال روح بروح ، بغض النظر عما يساور حياة العاشقين من الاختلاف الطارىء ، وهو الاختلاف الذى تـخلقـه ظروف المعـاش ، وهى ظروف تـتــجــدد فى كل يوم بأشـكال وألـوان .

أساس « العشق » أن يكون المعشوق صورة مثالية ، صورة يراها العاشق نهـاية النهـايات فى الجـمال والجـلال ، صـورة منزهة عن كل ما يغض من نضارة الجسم وحلاوة الروح .

(*) العدد ٥٣٩ من مجلة الرسالة أول نوفمبر سنة ١٩٤٣ .

ونحن نعرف أن العاشق لا يرى معشوقته ، ولا تراه إلا بعد تأهب وتهيؤ واستعداد ، فيكون كل لقاء شبيهاً باللقاء المنشود فى ليلة العُرْسِ ، وتكون الأنفاس فى حرارة محرقة لا يخمدها التلاقى ، وتلاقى العشاق أقصر من طيف الخيال .

وهذا البناء ينهدم حين يصبح العاشقان زوجين ، ينهدم بسرعة ؛ لأن المرأة لا تتجمل للزوج كما تتجمل للعاشق ؛ ولأن الرجل لا يغازل الزوجة كما يغازل المعشوقة ، وبهذا يضيع ما كان ينتظر الزوجان من سعادة الحياة : حياة العشق الذى لا يكدره فضول الرقباء ، وهما لا يدريان أنهما بعد الزواج ينوبان عن الرقباء فى التجسس والسخافة والفضول ؟

العاشق لا يغفو أبداً ، والمعشوقة لا تغفو أبداً ، فأيسر انحراف من أحد الزوجين العاشقين يخلق متاعب لا تُداوى بغير الفراق .

أيكون معنى هذا الكلام أن نَنْهى عن الزواج بعد العشق ؟

لا ، فإننا نرجو أن يكون « العشق » من وسائل الزواج وإنما ندعو إلى الفهم الصحيح لحياة الزوجية ، وهى تختلف عن حياة « العشق » بعض الاختلاف ، أو كل الاختلاف .

إذا تزاوج العاشقان .. فقد وجب أن ينتهيا عن دلال الحياة الغرامية ، وأن يعرفا أنهما مُقبلان علي تكاليف ثقال يوجبها نظام البيت ونظام المعاش .

الزوج الذى يصابح زوجته ويماسيها ، لا يطالب بما يطالب به العاشق الذى يلقى معشوقته من أسبوع إلى أسبوع .

الزوجة فى الأصل سكن للزوج ، ومزية السكن أنه مأوى صاحبه فى أوقات الفرح والترح ، ولحظات التفتح والذبول ، فمن واجب الزوجة أن تفهم أن الزوج لا يصلح فى كل وقت للمطارحات الوجدانية ، ولا يستطيع أن يتبسم فى جميع الأحوال .

إذا فهمت الزوجة المعشوقة هذه الحقيقة . أمكنها أن تستريح من متاعب كثيرة ، متاعب تخلقها الغيرة السخيفة ، فقد ثبت أن الزوجة لا ترد سكوت الزوج عن الملاطفة إلى أسباب من اشتغاله بمتاعب الحياة ، وإنما تردها إلى أسباب من اشتغاله بغيرها من النساء ، والمرأة لا تدرك أن للرجال متاعب غير الاشتغال بالنساء .

وأنا لا أبتدع هذا الرأى ، فقد التفت إليه أقطاب القصص الفرنسى ، وعندهم عبرة يضيفونها إلى الزوجة عند معاتبة الزوج فى أتفه الشئون ، وهى عبارة : « لم تَعُدْ تحبنى » !

وهى عبارة تعاد بحروفها فى أكثر الأقاصيص ، بحيث جنى عليها التكرار ، فلم تعُد تثير الإحساس ، برغم ما يصحبها من التوجع والأنين !

والظاهر أن المرأة تخلفت عن موكب الحياة ، فهى لا تزال تنظر إلى النعيم بالعين الحيوانية ، ولم تدرك أن النعيم صارت له ألوان من التطلع والتوثب والتسامى إلى مراتب لا تخطر للحيوان على بال .

والحق أن الرُّقى العقلى والروحى والأدبى والمدنى ، الرقى الذى نقل الإنسانية من حال إلى أحوال بصورة تفوق أحلام القدماء بمراحل طوال هذا الرقى من صنع الرجل ، وليس به للمرأة نصيب ، وستظل

فى تأخر إلى الأبد ، ما دامت تؤمن بأن النعيم فى الحياة الزوجية هو نعيم الحيوان .

ضعوا المرأة حيث وضعتها الطبيعة ، ولا تدللوها أكثر مما فعلتم يا أغبياء التمدن الحديث ! .

* * *

التوحيـد فى العشــق !!

* ويقول دكتور «زكى مبارك» - (١٣٠٨-١٣٧١هـ/١٨٩١-١٩٥٢م):

- « للتوحيد فى الحب نظائر فى أكثر الآداب ، ولكنه فى الأدب العربى أظهر وأوضح ؛ لأنه نشأ فى بيئة مفطورة على إيثار التوحيد .

« إن الشرك فى الحب قد يعين على فهم الألوان المختلفة من طبائع الملاح ، وهذا ما قصد إليه فريق من ا لشعراء الفرنسيين والألمان .

« أما التوحيد فى الحب ، فيوجه العاشق إلى درس نفسه بقوة وعمق ليرى مبلغ قدرته على ادراك ما فى الروح من سجاحة الهدى، وشراسة الضـــلال .

« المشركون بالحب درسوا طبائع متعددة سمح الشرك بدرس تقلبها دراســة وافيـة ، ولا كذلك الموحدون فى الحب ، فقد درسوا أنفسهم فى صحبة أحبابهم دراسة بلغت الغاية فى محاولة التعرف إلى سرائر الـروح .

« مثل هــؤلاء .. مثل الرجل المتزوج .. فهو يفهم ســر المرأة بأعمق ما يفهمه الرجل الفاجر .. لأن المتزوج يرى المرأة فى جميع أحوالها .. أما الفاجر ، فلا يرى من المرأة غير تلافيف من البهرج المبطن بالخــداع » ! .

***

(العشــق واليــأس والمــوت)

* يقول «طاهر أحمد الطناحي» (١٣٢١-١٣٨٧هـ/١٩٠٣-١٩٦٧م):

- « لعل الحب والموت يجتمعان في أن كلاً منهما لا يعرف كنهه ، وأنهما سرّ من أسرار الكون .

« وإذا حاول أحد أن يعرّف الموت ، فغاية ما يستطيعه أن يعرفه بأعْراضه - إن كانت له أعراض - أو بأسبابه إن كانت له - على الدوام - أســباب .

« وكذلك الحب ، فلم يدرك أحد سره وحقيقة دوافعه التي تجرد العاشق من شعوره بشخصيته ، وتهوِّن عليه - في سبيل هواه - كل شيء حتى الموت .. بل قد يستعذب الموت ويطلبه أملاً في النجاة ، أو رغبة في أن يجمع الله بينــه وبين من يحب في عالم الأرواح ، إذا كا ن قد كتب عليه ألا يهنأ بهذه السعادة في عالم الأجسام .

« وقـد عرَّفَ بعضــهم (العشــق) بأنه « مـرض وســواسي يشبه (الماليخوليا) يجلبه المرء إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض الصــور » .

« وعرّفه بعضهم بأنه « طمع يتولد في القلب ، ويتحرك وينمو .. ثم يتربى ، وتجتمع إليه الأنانية والحرص ، وكلما قَوِىَ ، ازداد صاحبه في الاهتياج واللجاج والتمادى في الطمع ، حتى يؤدى به إلى الغم والقلق .. فيكون احتراق الدم عند ذلك باستحالته إلى السوداء.. ومن غَلَبَته السوداء : فسد فكره .. ومع فساد الفكر يكون زوال العقل ، ورجاء ما لا يكون ، وتمنى ما لا يقع ، والهيام في وادى الخيال والأحلام » .

- « وإذا أصاب العاشق اليأس ، فقد يقتل نفسه ، أو يموت غماً .. وقد يرى محبوبه فجأة - أو بعد غياب طويل - فيتأثر ويموت فرحاً ، أو يشهق

شهقة تصعد فيها روحه .. أو يبلغه أنه مات ، فيصعق بنعيه ويموت حزناً .. أو يهجره المحبوب ، فيصيبه من الآلام النفسية ما يضعف جسمه ، ويميته بأوْهَى الأمراض .. بل قد يمتزج العاشقان امتزاجاً روحياً ، فيصبحان شيئاً واحداً ، إذا شُطِرَ النصف ، مات النصف الآخر ، كما قال « العباس ابن الأحنف » (ت ١٩٢هـ/ ٨٠٨م) :

خلط الله بروحى روحها فهما فى جسدى شىء أحد
بهما يحيا إذا ما اصطحبا فإذا ما افترقا : مات الجسد

* * *

- « وقصة (روميو وجولييت) ، قصة (مجنون ليلى) وغيرهما ترجع إلى حقيقة لا شك فيها ، وهى أن (الحب) يفعل فى النفس ، وفى الجسم ما يفعله المرض .

« وإذا صح أنه فى كنهه مرض من الأمراض .. فلا عجب أن يموت به (العشاق) كما يموت الناس بسائر الأمراض .

« وأنت ترى رجلاً يموت بالسكتة القلبية لحزن ، أو غضب ، أو ضعف .. فليس عجيباً أن يموت (عاشق) لموت (معشوقته) ، أو لخيانته وهجرانه ، أو لشدة وجْده بمن يحب ، فتصبح روحه معلقة فى خيط رفيع ، لا تقوى - فى محنتها - على أبسط الأشياء .

« وليس فى الدنيا أقرب إلى الموت من العاشق فى فرحه وأشجانه ، وفى ألمه وسلوانه ، وفى ضعفه وقوته ، وفى جبنه وإقدامه ، وفى أنانيته وتضحيته ، وفى استهانته بالحياة وحبه لها .. ما دام يعلم أن فى الموت رضاء محبوبه ، أو قُربه منه ، أو فوزه بوصاله .. فهو مؤثر له ؛ لأنه يراه شفاء لنفسه ، ودواء لقلبه ، ونجاة من جحيم الحياة .. أو فداء لمن يرجو لها حياة هانئة ، وحظاً سعيداً لا شقاء فيه ولا آلام » .

* * *

(العشـق : إدراك الجمال فى الكون)

* يقول دكتور « أحمد ضيف » (١٢٩٧-١٣٦٤هـ/١٨٨٠-١٩٤٥م) :

- « إن النساء منبع من منابع الشعر ، والشعراء مدانون لهن بأفضل الصفات لديهن ، وهى فى وصف شعور الناس .. لأن الشاعر الذى يشعر بالحب لا يتكلم عن نفسه فحسب ، وإنما يجمع آلام العشاق ، وأنينهم .. فيتألم ويئن معهم .

« وليس هناك أعذب من هذه الآلام ، ولاأحب للنفس من سماع هذا الأنين .

« وليس الغزل فى كلام العرب من المسائل الهزلية .. لأن الشعر - الذى هو وحْى النفوس - أكثر ما يكون ظهوراً فى التعبير عن الحب ؛ ولأن العشق هو ادراك أكبر مظاهر الجمال فى الكون .

« ومن لم يفتح الحب قلبه يوماً ، لم يدرك أسرار الحياة ، ولم ير غير ظواهرها ، ولم يتسرب إلى نفسه بصيص ضوء من جمال الوجود » ! .

* * *

(يا أعـلام الحُسْن .. اعشـقونا)

* ويقول دكتور «زكي مبارك» - (١٣٠٨-١٣٧١هـ/١٨٩١-١٩٥٢م):

- « يا أعلام الحسن !

« إن كنتم فطرتم على العزة ، وجبلتم على النخوة .. فهبونا بعض القُرب منكم ، والأنس بكم ، ولكم منا ما تشاءون من ذلة واستكانة ، وخضوع وعبودية .. وقد عذرناكم لعزكم ، فارحمونا لذُلنا ، وعشقناكم لحسنكم ، فاعشقونا لحبنا .. فكفى بالحب جمالاً ، وبالعشق زينة .. وإن المحب المملول ، خير من الحبيب الملول .

« فإن أبيتم إلا الصد والقطيعة ، والجفاء والإعراض ، فإنا نبشركم بأن الحسن حال تحول ، ودولة تدول .. ثم يحكم الله بيننا وبينكم وهو خير الحاكمين » ! .

* * *

فهرس الكتاب

فهـــرس الكتـــاب

الموضــــــــــــوع	صفحة

الموضـــــــوع	صفحة



دار الأمين للطباعة والنشر والتوزيع

٨ ش أبو المعالي (العجوزة) الجيزة - ت/ فاكس: ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - جيزة
تليفون وفاكس ٥٦٣٤٦٩٩



العشق والغزل
فى القرن التاسع عشر

- هذا الكتاب يحدثنا عن العشق عند محرر النساء « قاسم أمين » .. والعشق فى آراء « أحمد فارس الشدياق » وكذلك مذاهب العشاق المختلفة .. والعشق والغيرة .
- كما يحدثنا عن العشق كما يراه عباقرة القرن العشرين .. وعن فخر العاشق بحسنات حبيبه .. وعن العشق باعتبار السن .. والعشق باعتبار الزواج .. والعشق باعتبار الجاه والثروة .
- كما سنعرف فيه تأثيرات العشق فى القلب ، والعقل ، والصحة ، والآداب ، والسيرة ، والهيئة الاجتماعية .
- ومن هو العاشق ، ونظرة العشق عند « الرافعى » .. وما هو حب العاشقين وكيف يكون نصف الجنون فى العاشق ؟ .. ما الفارق بين حب الفتى وحب الرجل الهَرِمْ ؟ .. وما هو الأجمل والأكمل لدى العاشق ؟ وكيف يكون الحبَ عشقاً .
- وهل العشق رقة ووحشية ؟ أم شقاء ولذة ؟ .. وهل عذاب العشاق بالرحمة ؟ .. وكيف يكون قلب المرأة العاشقة ؟ وما هو حال العاشق عند السباعى ؟ .
- سنتعرف على العشق فى فكر « العقاد » ، هل حقيقى أن العشق نزوة ، وكذلك العشق والغزل عنده .
- سنقرأ عن الزواج بعد العشق لدى « دكتور زكى مبارك » وعن العشق واليأس والموت فى رأى « طاهر الطناحى » ، وكذلك رأى « د . أحمد ضيف » .
- سنرى أن العشق هو إدراك الجمال فى الكون .

دار الأمين — طباعة ● نشر ● توزيع — DAR AL-AMEEN

٨ شارع أبو المعالى (خلف المعهد البريطانى) العجوزة - تليفون / فاكس ٣٤٧٣٦٩١

١ ش سوهاج من ش الزقازيق (خلف قاعة سيد درويش) الهرم - تليفون/ فاكس ٥٦٣٤٦٩٩

١٠ شارع بستان الدكة (من شارع الألفى) مطابع سجل العرب - القاهرة - ت : ٥٩٣٢٧٠٦